

أصوات أدبية

الهيئة العامة لقصور الثقافة

٧٣

# مخاوف صغيرة

قصص

محمد المندى

إهـــــــداء2006

ورثة الكيمياني/ محمد فاروق الفران

الإسكندرية

وزارة الثقافة



الهيئة العامة لقصور الثقافة



أصوات أدبية

٧٣


# مخاوف صغيرة

قصص


محمد المندى



٢٢ سبتمبر ١٩٩٤

الغلاف تصميم: كمال عبده

المراسلات: باسم مدير التحرير على العنوان التالى
١٦ أ شارع أمين سامى- القصر العينى-القاهرة- رقم بريدى ١١٥٦١

# أصـــوات أدبـــية

سلسلة إسبوعية

تصدرها الهيئة العامة لقصور الثقافة



# سوء تفاهم

قمت بزيارة خاطفة إلى قريتى القريبة .. هناك .. علمت أن جارتى القديمة – جمالات – مريضة جدا.. زرتها .شاع نبأ الزيارة فى كل أنحاء القرية..

دار بين الخبثاء لغط كثيف حول هذه الزيارة . قال بعضهم إنه كان على علاقة غرامية بها منذ أيام المراهقة.. وأضاف آخرون على ذلك ما شاءت لهم أخيلتهم المريضة أن يضيفوا .. من حب .. وشوق .. وعناق حار !.. ولا أدرى ما الذى أضافوه غير ذلك !.

ولم يكن غريبا إذن أن يسرى نبأ هذه الزيارة كالنار المجنونة.. حتى استقر النبأ – بكل إضافاته – إلى مسامع زوجتى العزيزة.

عندما عدت إلى البيت – رأيت عينى زوجتى منكسرتين ..

تسحان دمعا . رابنى الأمر . لم أنطق بحرف. أمسكت بكتاب وانشغلت بالقراءة .. لكن صدمنى صوتها .. قالت بنغمات خنفاء:

- ألا تريد أن تنام يا زوجى العزيز؟!

لم أرد. قالت فى حشرجة مخيفة:

- أمازلت تفكر فيها ؟!

نظرت إلى أشعة شمس الصيف الحارقة التى اندلعت من النافذة .. ثم قلت بشئ من القرف :

- تقصدين .. من ؟!

لمعت عيناها ببريق ثاقب وهى تقول :

- جارتك القديمة .. ذات الربيع الواحد والستين !

لم أرد.. ومرة أخرى .. تقابلت نظرات زوجتى المتساءلة المحمومة بنظراتى.. أحسست بقلبى يكاد ينخلع . قمت . ودخلت غرفتى. أغلقت الباب على نفسى .. إنها الغرفة التى أحب أن أقرأ أو أكتب فيها .. أحزننى هذا الاتهام الظالم.. اغرورقت عينى بالدموع لسوء الفهم الذى أوقعت زوجتى نفسها فيه.

إن زوجتى وفية.. طيبة.. طاهرة .. نقية.. عاشرتنى لسنوات

طويلة.. وفى نهاية المطاف تظن بى السوء (!)

ظنت أننى قد عدت بالفعل إلى جارتى القديمة..

آلمنى شكها القاتل.. المدمر لكل القيم الحلوة التى مرت فى حياتنا الجميلة.. دخلت غرفتى متسللة. جلست.. كان صدرها يعلو ويهبط وهى توجه لى اتهامات غريبة.. وشك أملاه عليها خيالها الواسع..

بكيت.. كان البكاء هو المهرب الوحيد من حرج الموقف وفوران العاطفة.. والشك .. الشك القاتل المميت!

تركتنى عندما وجدت أن الدموع هى وسيلتى الوحيدة للرد عليها.. وعند الظهيرة فوجئت بزوجتى تدخل غرفتى بخطوات متلصصة.. كانت دموعها تسيل فوق خديها بلا انقطاع.. وكان جسمها يهتز من الشهقات المكبوتة التى تكشف عما تعانى من أسف وندم.. قالت هامسة فى رجاء :

– رضوان ..... أأغضبتك؟!

مسحت دموعى بطرف منديل. عادت تسألنى فى خجل:

– أأغضبتك يا رضوان؟!

قلت:

- لا ..

قالت:

- مالذى يبكيك إذن ؟!

قلت فى نبرات مرتجفة :

- كلا، لن أبكى بعد الآن. من فضلك.. دعينى أخرج.

مسحت دموعى. إنطلقت إلى الخارج. مشيت فى الشوارع على غير هدى فى عز الهجير.. الشمس تكاد تحرق رأسى .. لكن الأسف الذى أبدته زوجتى جعلنى أحس بأن أعصابى قد هدأت.

عدت إلى المنزل لأجد زوجتى الحبيبة تتلقانى بالأسف الشديد على الشكوك التى راودتها.. وقبلتها فوق جبينها.. قبلة الزوج الذى يحب زوجته.. قبلتها بكل الحب وبكل الإخلاص..

ورأيت موجة من الدموع.. تكاد َطفر من عينيها.وصبها الحياء.

# علبة الكبريت

عاد من الخارج في ــــلمساء. بحث عن علبة الكبريت فلم يجـــــدها. اصطدمت يده بوابور الغاز. برطمبكلمات لم يعرف هو نفسه لها أي معنى..

كانت علبة الكبريت تحتل ركنها المألوف.. هنا.. جنب حلة الطبيخ ! فأين ذهبت ؟!. عاد مرة أخرى يبرطم وهو يلهث كالمختنق : إنه كلب.. كلب؟!.. أيوه .. وابن كلب كمان !

لماذا لم يتزوج بامرأة تنظم له وقته ؟!.. ترتب له حياة مريحة ..؟! تجهز له الأكل .. وتغسل له الملابس؟!

سمع خبطاً فوق الباب.. قال «خورشيد» من آخر الغرفة المعتمة :

– من .. من بالخارج ؟!

لم يسمع أحداً .. تمتم بعصبية:

- هل أصابنى الطرش ؟! أم ماذا .. ؟!

لم يكن يريد أن يلتقى بأحد وهو فى هذا الكرب..

فلانور .. ولا أكل.. ولا حتى شاى أو سكر..

وعـاد الطرق مـرة أخـرى بقـوة ..رد وهـو يطلق ضـحكة ساخرة :

- لا يوجد هنا أحد (!)

سـمع صـوتا يشـبـه صـوت جـارته عـائشـة.. تلك السـيدة الهادئة الوديعة التى ترملت منذ أكثر من عام :

- إفتح يا خورشيد ..

همهم لنفسه :

- هى جـارته عـائشـة، صـاحـبـة الدكـان.. مـاذا تريد ؟! بيـد مرتعشة فتح الباب. طالعه وجه عائشة المريح وهى تمد له يدها بخطاب تسلمته عند الظهر من ساعى البريد :

- خد يا خويا .. جواب وصلك..

مدت بصرها إلى الغرفة المظلمة. ولاحظت الارتباك البادى عليه.. وهى تمد له يدها بالخطاب :

- مالذى جرى لك يا خورشيد ؟! ألا تجد حتى الكبريت ؟!

إندفع فى الكلام !

– تمام !! يبدو أن الله غاضب على (!)

وهى تطلق ضحكة ذات معنى :

– لا ياخورشيد . إن الله لم يغضب عليك، ولكنك أنت الغاضب على نفسك (!) لماذا لا تبحث لك عن زوجة تنظم لك حياتك يا خورشيد ؟!!

أطرق :

– طاف هذا ببالى من لحظة.. ولكن أين هى المرأة التى ترضى بى ؟!!

رمقته وهى تمد له يدها بعلبة كبريت :

– كثيرات . كثيرات يا خورشيد. فقط عليك أن تفتح عينيك وستجد حولك أكثر من واحدة تليق لك، وترضى بك (!) أم أنك يا خورشيد لا تريد أن تفهم ؟!!

لمح نظرة إعجاب تطل من عينيها وهى تطرق إلي الأرض.

تمتم فى رنة فرح :

– آه .. فهمت (!)

إعترفت عائشة لنفسها أن دنياها قد بدأت تزهر من جديد..

إنسـاب شـوق جـسـمـه إليـهـا كـومـضــة من نور .. قـالت وهى تتماسك:

– مالذى فهمته يا خورشيد ؟!!

لم يرد .. وفى الليلة التـاليـة كـانت لمـبـة غـاز نظيـفــة تضئ الغرفة !!!

# حكايات بنت شقية !

إنتهى مولد السيد البدوى . كان قد لمحها أكثر من مرة.. بنت . جميلة كزهرة فى بستان. فى عينيها حور .. وفى وجهها كل ملامح البنت الشقية. أعجبته على الفور، وجد نفسه يقترب منها.. أحس بقلبه ينجذب إليها.. وخيل إليه أنها هى قد انجذبت إليه.. فقد لاحت فوق شفتيها القرمزيتين ابتسامة كاشراقة الفجر. شجعته ابتسامتها الحلوه. دار بينهما حديث خاطف. عرف – منها – أنها تخرجت من معهد فنى ، وأنها تشغل نفسها بأشياء غريبة .. وأنها – هى نفسها – تحار فى أن تجد لها تفسيرا. سألها :

– أمتزوجة أنت ؟!

طالعه وجه ضحوك :

– لا .. اسمى الهام، ومازلت آنسة !!

عاد مرة أخرى يسأل :

– أيوجد شاب فى حياتك؟!

أجابت بسرعة :

ـ أبدا أبدا . حتى فتشنى (!)

قالت ذلك وضحكت . أسعده هذا المرح البادى عليها،

قال فى مرح :

– يخيل إلى أننى محظوظ جداً.

إنفرجت شفتاها عن بسمة حلوة . أحس أنها احتكت به أكثر من مرة. لم يهتم . عاد يقول :

– اسمى كمال.. أعمل مهندساً فى منطقة خطرة . أذوق علقم الموت فى كل ساعة.. بل فى كل لحظة . لست متزوجاً .. ولا توجد امرأة فى حياتى. أيمكن أن أتقدم لطلب يدك؟!

حملقت ذاهلة فيه. ثم احتكت به مرة أخرى.. بعدهاأجابت فى رنة فرح :

– أجل أن هذا يسعدنى (!)

لمح دمعة الفرح تبرق فوق خدها. إذن هى راغبة فيه. قال :

– لوسمحت.. أريد العنوان ..

دست فى يده ورقة وانصرفت كغزال شارد ! قبل الورقة.. ثم

وضعها فوق صدره.. وهمس لنفسه متغنيا فى حبور : ضاع القلب بالأعين السود شوقا ! ليتنى نسمة على خدها !.. متى تزف إليه؟ متى ينفس من مشاعره المحتبسة بقبلات يمطر بها هذا الجسم البض طولاً وعرضاً؟!

الآن.. لا ينبغى أن تفلت منه الفرصة !! أسرع إلى العنوان كما الطير المهاجر . وجد نفسه يقف أمام بيت صغير فى حارة ضيقة : فقيرة هى إذن ؟! لا بأس !.. شاهد سيدة تقف أمام باب الدار .. تقدم..

- مساء الخير .. أريد أن أسأل عن فتاة اسمها إلهام..

أجابت المرأة :

- هى فتاة جميلة وتقيم هنا .. أليس كذلك ؟!

- أجل .. أريد أن أتقدم لطلب يدها .. ولكن .. كيف عرفت ؟!

قالت السيدة فى اكتئاب واضح :

- هى ابنتى ! لقد أتعبتنى. شقاوتها أوجعت قلبى.. مادمت تريد أن تقترن بها فإن من واجبى أن أصارحك.. إنها - ياولدى - مصابة بداء غريب إسمه داء النشل ! هه.. ماذا قلت ؟!

شعر كأن سن مطواة ينغرس فى قفاه. غامت المرئيات أمام

بصره، قال في همس :

– وأين هي الآن ؟!

أشارت المرأة إلى نافذة مضيئة وهمست :

– تجدها خلف هذه النافذة المضيئة ، إذهب إليها .. فربما جاءت نوبتها على يديك .. إنها فتاة شقية .. ولكنها حلوة !

مـشى خطوتين ثم توقف وراح يرمق النافـذة بكل الأسـى والحزن .. ثم شعر بأن قدميه لم تعد تقويان على المسير ..

# فتاة أجنبية !

ما الذى كان ينقصه ؟! ربما فتاة جميلة مثل جارته جانيت! فقد حركت كوامن الحب فى قلبه. أشعلت فيه جذوة لا تخمد .. فهى فى مجموعها تبدو كفراشة جميلة..

كان يراها كل يوم وهى تقف فى الشرفة التى تجاور شرفة مسكنه . تخرج إليها فى الصباح الباكر، ثم تستند بأناملها البضة فوق السياج، وتستنشق الهواء النقى بعمق .. وكان يعرف أنها «أجنبية» تعيش مع أسرتها فى الشقة المجاورة لشقته منذ سنوات ...

رآها وهى فتاة يانعة تذهب إلى مدرسة «الفرير» بملابسها القصيرة الزرقاء . وكان دائما ينتظرها حتى تعود . فتاة مشرقة

الوجه . تضحك بسبب ولغير سبب.. كأنها خلقت لتبدو باسمة لكل عين. تومئ برأسها - الذى يتوجه شعر أشقر جميل - لبواب العمارة أو لأى إنسان آخر تصادفه .. فى تحية رقيقة تعرب عن أدب جم قل أن يتوافر عند فتاة أجنبية !

وأنهت «جانيت» الدراسة وأصبحت فتاة مكتملة الأنوثة ، فيها من الاغراء ما يجعل الشباب يحس بالدوار : الدوار من الجمال الطبيعى الذى لم يتلوث بالمساحيق. الجمال الذى أبدعه الخالق.. وتفنن فى صنعه على هيئة مخلوق !

فتاة أجنبية ! قد تكون فرنسية .. أو بلجيكية .. أو .. أو غير ذلك من مختلف الجنسيات التى استوعبتها قاهرة المعز لدين الله، وأغدقت عليهم الكثير من خيراتها التى لا تنفذ!!

ولم يجد «أحمد » غضاضة فى الوقوف أمامها ما شاء له هواه . يستجلى طلعتها التى تثير كوامن الإحساس بالجمال.. إلى أن شاهدها وهى تفتح بحور العشق أمام الجميع (!) رأى عددا من الشبان «من بنى جنسها» ظهروا فجأة فى حياتها كالنبات الشيطانى ..

غامت المرئيات أمام عينيه. احتدمت الغيرة فى نفسه .. وبدأ ينظر إليها بغير قليل من الضيق. إنها أحاسيس تعترك فى

أعماق الإنسان وليس من السهولة أن يتغلب عليها حتى ولو كان الأمل عنده أوهى من خيوط العنكبوت !!

* * *

وبعد ليلة كلها أرق قال لنفسه مواسيا :

– ولماذا الغيرة ؟!! ولماذا أتغزل أصلاً فى مفاتنها؟!!

وكأنما ارتاح لهذا الخاطر المفاجئ فانصرف غضبه.. ومع ذلك فقد جال برأسه سؤال: أيحب جارته الأجنبية؟!! أحس بهذا السؤال يقف فى برأسه كلوح من ثلج، وكاد يبتسم ساخراً من نفسه، إن جانيت –على كل حال –ليست مناسبة له، فهو مهندس مصرى وهى فتاة أجنبية.. كل مافى الأمر أن الخيال لعب برأسه إلي درجة الحب.. ثم أضنته الغيرة مع بقية المشاعر التى يخضع لها الإنسان..

فى الصباح المبكر من اليوم التالى سمع وقع أقدام جارته وهى تدب فوق خشب الشرفة.. فاستخفه الطرب وهو يخرج إلى الشرفة بجلباب النوم !.. لقد ظهرت فى الموعد كعروس مجلوة..كالفجر ينبثق بنوره الأبلج !. إلتفتت نحوه وهزت رأسها تحييه. فانفرجت شفتاه عن بسمه قريرة كأنه احتضن عروساً وردت من جنة عدن !

لكن .. لطمة الأمس مازالت «مخيشة» فى رأسه، ومع ذلك فقد هز رأسه تحية لصاحبة أجمل وجه رأته عيناه..

كان وجهها أجمل بكثير من الأفق اللازوردى، وكان صوتها أكثر شجواً من زقزقة العصافير وهى تبحث عن أعشاشها فى أعالى الشجر..

كانت أشعة الشمس قد بدأت تنعكس على صفحة النيل فتثير رقرقة من النور كذهب يتوهج داخل مرجل، مرة أخرى، التفتت إلى أحمد وقالت له بصوت عذب :

– صباخ الخير يا أخمد !

هتف من أعماقه: أخيراً.. وقعت المعجزة ! إن جارته الفاتنة جانيت تلقى عليه تحية الصباح بغير تكلف.. إذن، فهى تبغى الوصال !. وشعر بقلبه يركض داخل صدره كصاروخ ينطلق بسرعة الضوء !. كان الأمر – بالنسبة له – واضحاً وجليا بلا أدنى لبس!!. أو كما يقول حضرات العشاق: نظرة.. فابتسامة .. فسلام .. فكلام .. فموعد .. فلقاء ..

أو ليس هذا ما يقوله أساطين الحب والغرام ؟!!

– يا فرحتك يا أحمد ، لقد أصبحت لك «قطة» ولا كل القطط، قطة رائعة الجمال.. قطة مستوردة من بلاد العم سام ! كل ما

فيها ناعم ومشرق ويض و.. وجميل! إن ابتسامتها الخلابة، وعينيها الضاحكتين.. ولسانها الصادق ! وقلبها الجرئ.. كل ذلك سيجعل منه «فالنتينو» القرن العشرين!!

وقضى أحمد ليلته فى أحلام وردية ..

* * *

فى الصباح الباكر ذهب أحمد إلى عمته الثرية فى المغربلين وسرد لها قصة حبه لجارته - جانيت - بعبارات رقيقة ممزوجة بالاحترام. قال :

- يا عمتى . إن جانيت تمتلك قلباً من ذهب، وأنه يعتقد إعتقاداً راسخاً بأن هذه البنت تبادله الحب، إذ ليس هناك ما يجبرها على أن تنظر له وهى باسمة الوجه، أو أن تقف قبالته فى الشرفة ساعات طويلة.. وأن كل الدلائل تشير إلى أنها تحبه و.. وأنه يحس إحساساً قوياً بأن جانيت.. وجانيت وحدها ، سوف تغير مجرى حياته كمهندس مرموق !

وضحكت العمة العجوز وقالت ساخرة :

- جانيت مين دى يا ولد اللى انت تحكى لى عليها ؟! يا ولد .. لا ترهن قلبك عند فتاة مجهولة النسب !

حاول أحمد أن يوهم العمة الحيزبون بأنه لا يمكن أن يكذب

عليها وأن قصته حقيقية و.

لكن العمة قاطعته في ضيق :

– ولد .. لا فائدة من الكلام عن هذا الجنون. إن هذه البنت ليست طبيعية ، وربما تريد أن توقعك في حبائلها لغرض تضمره في نفسها.

– إنها يا ...

– ولد .. إنتهى اللقاء !!

* * *

عاد أحمد إلى البيت يجر أذيال الخيبة وهو الذى كان ينتظر مباركة عمته الثرية لتمده بالقليل من المال . إن عمته «أروية» ما في ذلك شك.. لكن .. من أدراها أن «جانيت» فتاة – مُلْعب – ؟! إنه لن يأخذ بكلام عمته الطاعنة في السن.. لقد هناهت أفكارها، ولم تدرك أنه – كمهندس – يحتاج إلى فتاة مودرن مثل جانيت .. سيعقد حفلاته معها رغم أنف عمته الخيزبون.. ويتأبط ذراع جانيت ويذهب بها إلى عمته و .. ويغيظها !!

لقد صعب على أحمد أن تسخر عمته منه. وهي التي يكن لها كل الحب وكل الاحترام، فهي الوحيدة الباقية من أفراد الأسرة.. هي البركة والخير، وفيها كل مقدسات الماضي بعبقه وعبيره..

فلماذا صدته هذا الصد الذي يؤلم النفس؟!

ولم يجد أحمد غضاضة في أن يرابط في الشرفة - وأن يقف أمام جانيت بالساعات يستجلي طلعتها البهية التي تثير كوامن إحساسه بالجمال..

وذات مساء ألقت عليه التحية، وقد اتسعت - في هذه المرة بسمتها - وبدت أكثر إشراقا. فرقص قلب أحمد داخل صدره ، وتمتم كمسحور :

- إذن .. فهي تبغي الوصال !

بدا له كل شئ ينبض بالحياة . بالحب ، بالأمل المشرق المتوهج ! .. كان من قبل يرمق كل شئ لامعاً هشاً .. أما الآن فقد أصبح عند اليقين بأن جانيت تحبه. ورتب لنفسه ألف لقاء ولقاء ! وتوهم في نفسه أنه قد لمسها ألف لمسة . وقبلها ألف قبلة !!

ومر في خياله شريط طويل وعريض لحياة سعيدة وهانئة مع جانيت ولو أنه نقل لعمته أقل القليل من السعادة التي يحسها لصرخت في وجهه : إمشي من هنا ولد . إنت واحد مشبوه بلوهام ! .

وكان أحمد يضحك من عمته التي لم تنس أبدا أصلها

التركى !! وأرسل أحمد بصره إلى جانيت فابتسمت. وشعر بقلبه يركض داخل صدره. كان الأمر واضحا جليا، حقا وصدقا.. وهل هناك من يستطيع أن ينكر «كل هذا الحب»..؟! إنها تحبه بلا أدنى ريب !

* * *

مضى أسبوع ولم يلمح أحمد جانيت. لم ير لها أثراً أو ظلاً..

ومضت الاف الخواطر تتواثب فى رأسه.. خواطر كلها سوداء.. كالحة. جفت منابع الأمل فى نفسه. وهتف : أين ذهب ملاكه الحارس ؟!

أبت قدماه أن تبارح الشرفة، إن لم تظهر فسيذهب إليها.. سيسأل عنها وليكن ما يكون. فإنه لن يمنح قلبه لفتاة سواها.. أبداً أبداً. ودارت بنفسه أفكار شتى. أفكار مشرقة.. تتوهج بالحب، مرت برأسه ناعمة ورقيقة كورق الورد.. وأخرى مقبضة سوداء لها وقع فى نفسه كأشواك مدببة تنغرس فى لحمه !

وأوشكت الشمس أن تغطس فى الأفق اللازوردى، وأوشك الظلام أن يخيم على الدنيا بأسرها.. وفى هذا الوقت سمع وقع أقدام جانيت فى الشرفة، فاستخفه الطرب وتوهجت أحلام الحب فى قلبه، وكاد يصرخ : يا شيخة حرام عليكى.. ليه كده؟!

لقد ظهرت جانيت ! أجل .. ظهرت في الشرفة كعروس مجلوة!! إلتفت نحوه وحدجته بنظرة دارت لها رأسه .. فانفرجت شفتاه عن بسمة راضية، وهز رأسه تحية لصاحبة أجمل وجه .. وهزت هي رأسها رداً للتحية .. ثم تشاغلت عنه بالنظر إلى .. الشارع .. وبدت كأنها تفكر في شئ هام. وهتف أحمد :

– ماذا يا ترى يدور في رأس جانيت؟!

هبت نسمة هواء فتهدل شعر جانيت فوق جبينها الناصع .. غيمت السماء واكفهر الجو، وهم أحمد بالانصراف لأن جانيت لم توله الاهتمام المناسب، ولكنه شعر بقدميه تجمدان بالأرض، فقد شاهد عددا من الشبان – نفس الشبان – يقتربون من منزل جانيت وهم يحتضنون حقائب منتفخة، وفتاته الأجنبية تهز رأسها وأناملها البضة تغوص في شعرها وتبرز في حركات مرنة لتسويته.. وشعر أحمد بالاكتئاب وصاحبة أجمل وجه تغادر الشرفة ! قال مواسيا نفسه : إن كانت الفرصة قد ضاعت اليوم فمن المؤكد أنها لن تضيع في الغد!!

واستدار إلى الداخل وجيوش الأسى تزحف على قلبه.. لماذا ينتابه هذا الشعور في كل مرة يراها تغادر الشرفة ؟! أهو حب ؟! هذا حق .. فهو يحبها !! ومازال قلبه يتوهج بحبها !

وتمدد فوق السرير ، وطافت برأسه خيالات كل وأوهام شتى ، قد يكون مدلهاً بحبها وهى عنه لا هية . كل ذلك جائز طبعا، فهو لم يفاتحها فى شئ، ولم يأخذ عليها عهداً بالحب أو حتى بحسن الجوار !!

وعلى – حد علمه – فإنه لم يصرف حتى الآن أن فتاة أجنبية وقعت فى شرك فتى عربى ، أو حتى رحبت بالزواج من عربى .. اللهم إلا كان ذلك لأسباب جوهرية ، لا تغيب – طبعا – عن فراسته كأن يكون ذلك العربى على درجة كبيرة من الثراء، أو عالماً فذاً.. أو تاجراً ناجحاً.. هكذا دائما الفتاة الأجنبية.. إنها تبحث عن مصلحتها، وتكيف حياتها حسب المنافع التى تعود عليها.. سواء كانت هذه المنافع مادية أو معنوية .. أما هو ..

ومصمص أحمد شفتيه فى أسى، فماذا عنده من «بضاعة» تغرى فتاة فى جمال جانيت ؟!!. لا شئ!! ويؤسفه أن يقرر هذه الحقيقة فيما بينه وبين نفسه بكل صراحة. إذن فإن عمته المخضرمة التى تنحدر من أصل – جركسى – كانت على حق عندما حذرته من الانطلاق فى حب واحدة مثل جانيت، فإن عمته خصبة التجارب و – أروبة – كما يقول الناس !

ومضى جانب من الليل وهذه الأفكار تدور فى رأس أحمد،

ويتسع فى نفسه المعنى والمرمى إلى آفاق بعيدة ، فهو مهندس ناشئ.. مجرد مهندس عادى فى مكتب محدود النشاط.. أما هى ، فهى أوربية .وهى متحررة تبعا لنشأتها المتحررة.

وجاءت الضربة القاصمة التى أطفأت جذوة الحب التى اشتعلت فى صدر أحمد ، فقد شاهد جانيت وهى ترتمى بين أحضان شاب من الذين يترددون عليها.. ثم تركته وقبلت آخر .. هى التى قبلت !

ولأول مرة شعر أحمد بأنه محموم. وأخذ جسمه يرتعد وأسنانه تصطك، وراح يردد كمخبول: أهذا معقول؟!!

وبدأت الصور الشهوانية تترى أمامه. وعلنا .. فى الشرفة.. الحورية سقطت أمامه فى مستنقع..!!

* * *

فى نفس المساء شاهد أحمد – كبسة – من رجال الشرطة على شقة جانيت، وعلم – كغيره – أن جانيت، فتاته الملائكية النظرة لم تكن غير واحدة من عصابة خطرة فى تزييف وتهريب النقد.. وقد وقعت فى الكمين المحكم الذى أعده رجال الشرطة!

وشاهد أحمد – فتاته – وهى تساق إلى النيابة مع بقية أفراد العصابة .. و.. وصفرة المستقبل المظلم تكسو خديها.. والتقت

نظرته بها.. فهز رأسه فى أسف.. وتمتم :

- الحمد لله. الحمد لله ، لأنه لم يقع مع جانيت!!

واستدار إلى الداخل ونظر فى مرآة الحائط.. لم يلمح وجهه، وإنما لمح وجه عمته.. وهى تنظر له ساخرة !!! وتمتم :

- أجل ، أيتها الحيزبون ، لقد كنت أذكى منى ، بكثير..

## صفية وعرفات

صفية جمال.. فتاة يانعة الصبا فى التاسعة عشر من عمرها .. طويلة القامة ، عريضة الكتفين. سمراء اللون ، صغيرة الفم واسعة العينين .. تتدلى خصل شعرها على ظهرها إلى مادون الأرداف.. ويبدو من ملامح الوجه أنها عنيفة المشاعر قوية الإرادة.

لم يكن والدها طيبا ولا مستقيما فشعرت بالنفور منه . كان يرتاد الحانات ويلعب الميسر ويبدد مصروف البيت على مزاجه الخاص. حتى شقيقها - عزت - كانت تشعر نحوه بالكراهية لأنه كان صورة طبق الأصل من إبيه ! بل إنه زاد على ذلك

فاحترف السرقة والسطو على المنازل والحقول.. وأخيرا عرف كيف يغازل بنات الناس!!

واعترفت صفية لكل الناس بأنها تحب أمها فقط.. لأنها رقيقة العواطف وتميل إلى فعل الخير. ولم تشب حياتها شائبة بل إنها كانت تبدو كقديسة!!

كانت الأم تستوقف الزوج وتطلب منه بعض الضروريات التى يحتاجها البيت.. فكان يوليها ظهره ويهز كتفيه ثم ينصرف دون أن يرد ...!!

وكانت أخباره تأتى إلى زوجته من الجيران والمعارف والأصدقاء بأنهم شاهدوا زوجها يلعب الميسر، أو يتجرع البوظة المخمرة وبعد ذلك يمشي وهو يترنح فى الطريق، وكان الابن على شاكلة أبيه.. فكانت الزوجة المسكينة تخلع المنديل - أبو أوية - من فوق رأسها وترفع يديها إلى السماء وتقول: منك لله يا جمال يا ابن تفيدة ! ولا تجد غير الدموع لتخفف بها النيران التي كانت تندلع فى صدرها..

كانت صفية تسمع نفس الكلام عن أبيها وشقيقها فيزداد نفورها منهما معا، ويتضاعف حبها للأم.. كانت تتألم عندما تسمع أن والدها يحتسى الخمر فى الشارع. كانت تشعر

بالغضب يكاد يقتلها.. والقهر يكاد يفرى قلبها.

لهذا كله، سرى بين صفية وبين الأم إتفاق غير مكتوب بأن تكون صفية هى ربة البيت.. والساهرة عليه.. وأن تترك والدها وشقيقها لحياة المجون ومستنقع الشرور الذى ترديا فيه .. ولأن الهداية ليست إلا من الله وحده

* * *

كانت صفية تخرج من المنزل فى وقت مبكر وهى تمسك بمقود الجاموسة وتمضى فى طريقها إلى الحقل وهناك تمضى فى تنقيته من الحشائش الضارة، أو تعزقه، أو تقوم برى الأرض بالشادوف، ثم تعود آخر النهار وهى راضية قانعة بما أدته من واجب..

لم يكن هناك مفر من أن تفعل كل ذلك بمفردها.. وبعد أن تفرغ من العمل تجلس إلي جوار ساقية قديمة وتتناول طعامها الذى يتكون من دقيق الذرة وقطعة صغيرة من الجبن وبصلة واحدة.. ثم تشرب من القناية وتحمد الله..

ولم يكن يضايقها أى شئ فى الحياة .. عدا.. عرفات ! وهو فتى ماجن ولا هم له إلا مغازلة البنات.. والتسكع فى الشوارع والحارات..

وذات صباح جلست صفية على أرض القنطرة.. وراحت ترمق الحقل الذي روته بدموعها.. وصانته بخفقات قلبها.. ولمحت عرفات.. كان يقترب منها .. قطبت حاجبيها في تقزز .. استدارت بجسمها كله بعيدا حتى يمر .. ولكنه وقف وقال ساخراً :- باصص بعيد ليه يا جميل؟!

تنهدت صفية في كمد. وبصقت فوق الأرض، ثم استدارت إليه وقالت في شبه وعيد:

- اتمشى يا واد ، لايمها وغور من وشى..

لكن هذا الجفاء لم يكن كافيا لردع عرفات، فقد تقدم نحوها خطوة، وتمتم في وله وقحة معا :

- صحيح .. التقل صنعة ؟

إنحنت صفية بسرعة فوق سياج القنطرة وقد نفد صبرها .. ولاذت بالصمت .. لكن عرفات أمسك ضفيرة صفية وشدها إليه بقوة ، فانتابها الذعر من هذه الجرأة ولطمته وهى تهدر :

- أوصلت بك القحة إلى هذا الحد.. يا كلب ، ستدفع ثمن هذه السفالة .. خد.. خد..

وبحركات لا إرادية وجدت نفسها تعضه وتركله حتى أدمت خده وسالت الدماء من عنقه وكتفه ويده، وكاد عرفات يهرب من

وحشية صفية.. لولا أنه شاهد عزت - شقيق صفية يقف على بعد خطوتين وقد ارتسمت فوق وجهه بسمة عريضة.. فقد شاهد كل شئ على الطبيعة لكن عينيه كانتا تقدحان شرراً.. وقال بصوت أجش :

- إيه ده يا عرفات ؟! بقى ضاقت عليك الدنيا وملقتش غير أختي صفية؟!!

وتبادل الاثنان عبارات التهديد. وترك عزت عرفات يمضى لشأنه ، ثم رمق أخته وقال فى دمدمة مخيفة :

- عمر عزت ما بقى راجل إلا النهاردة يا صفية. وحتعرفى الحقيقة دى قريب خالص يا صفية !

* * *

عرف الأب أن رجال الشرطة قد ألقوا القبض على ابنه بتهمة قتل عرفات الذى عثروا عليه مقتولاً فى أحد الحقول .. ففاض الدم من وجهه وارتعشت زاوية فكه ونظر إلى زجاجة الخمر وألقى بها فوق الأرض فتهشمت تماما.. ومشى فى الشوارع والدموع تغرق وجهه كله.. وأقسم أنه لن يعود إلى حياة الضياع..

كانت الدلائل كلها تشير إلى أن عزت هو القاتل وتأكد هذا

الظن من شهادة الشهود.. ولجأ عزت إلى الصمت التام، لم يقل إنه قاتل أو إنه برئ.. كانت تعروه حالة من الاكتئاب الشديد.. حتى زارته أخته ولامته على قتل عرفات .. فانهار.. وقال فى حزن عميق :

- ليتنى كنت القاتل، إن ذلك شرف لى ما بعده شرف!!

إن عزت وغد وقد انتويت قتله بالفعل.. ولكن .. يظهر أن آخر قد سبقنى إلى هذا الشرف !!

* *

انتهى التحقيق مع عزت وثبت أنه برئ. وخرج من الحبس الاحتياطى ومشى فى الشارع وذهنه منصرف إلى شئ واحد فقط - هو التوبة من كل الموبقات التى ارتكبها عن جهالة كما تاب والده.. وهتف : حياة الشرف جميلة !

ولم يذهب عزت إلى البيت.. وإنما مشى فى طريق إلى الحقل.. إلى أخته.. المكافحة النبيلة .. والتى حملت فوق كتفيها كل أعباء البيت عن رضى وقناعة نفس.

وهناك لمحها.. كانت تشمر كميها.. وتربط ملابسها من الوسط بحبل من الليف.. واستعدت لأن تروى الحقل بالشادوف.. فتناوله منها وبدأ فى رى الحقل وفى عينيه كل

الإصرار على التوبة.. والاستقامة..

ورمقته صفية.. وهى تحس أن شقيقها قد ولد من جديد..

# ثمن الدواء

الجو خانق. خانق. لا توجد نسمة هواء تهب. الحجرة ضيقة، مظلمة.. تقع فى نهاية حارة أكثر منها إظلاماً وضيقا.. ليس فيها غير سرير علاه الصدأ، وكنبة قديمة مهشمة الزوايا، فوقها ملاءة مزركشة بالبقع والثقوب .. بدت بالقرب من الباب كشبه منحرف !

وغطت السيدة توحيدة – رأسها بشملة بيضا،.. وجلست فوق مقعد خشبى تآكلت حوافيه فغاصت قوائمه الأربعة فى تراب الحجرة وراحت تنظر إلى الفراغ بعينين دامعتين.. وقد أسندت رأسها المتعب فوق راحة يدها اليسرى.. وتعلق بصرها بابنها الراقد فوق السرير ولم يطرف لها جفن!

وغابت الشمس وهى فى جلستها.. فانتشرت العتمة فى أرجاء المكان ولم يبق بصيص ولو ضئيل من النور. ونظرت – الست توحيدة – إلى المصباح الصغير المعلق فى الحائط ولم تستطع الوقوف على قدميها المرتجفتين لتضيئه. لم تقدر على التحرك من بعد صلاة العصر حتى وقت الغروب..

أغمضت عينيها وهي تسمع آذان المغرب. استرخت فوق المقعد. أرسلت إلى فراغ الحجرة نظرة فيها توسل وضراعة، تمتمت من بين شفتين مرتعشتين :

- يارب ! إشفه من أجلي. إشف محمود يارب من أجل أمه المسكينة! ومرق طائر أمام النافذة.. وصفق بجناحيه وارتفع إلى السماء وهو ينعق مولولاً كأنما قد ضل الطريق إلى عشه ! أرتجفت توحيدة وهي تلمح الطائر الأسود وسرت في بدنها رعدة كرعدة الموت.

- أمي ، أمي، أين أنت يا أمي ؟!

كلمات قليلة . محمومة .. قالها «محمود» الراقد فوق السرير كهيكل من تلك الهياكل التي يتعلم فيها طلبة الطب. استدارت الأم إليه. بسطت ذراعيها نحوه بحركة لاشعورية كأنما تهم بحمايته من عدو مجهول يحاول أن يفترسه.. لكنها لم تقدر على الإتيان بأية حركة. سقط رأسها فوق صدرها يائسة. أجهشت بالبكاء..

وراح محمود في نوبة من السعال الحاد. وبدأ يئن ، ويبصق دماً أسود.. فوثبت الأم من فوق المقعد كمن لدغتها أفعى..

اقتربت من فراشه وعيناها تفيضان بالدمع :

– يا حبيبى.. بماذا تشعر ..؟!

اتسعت عينا محمود. هز رأسه فوق الوسادة يمنه ويسره، وتمتم وهو ينهج كغريق:

– أمى ، أمى، النار تأكل صدرى ..!

قال ذلك وعض شفتيه الذابلتين كأنما يحاول أن يكتم صرخة أوشكت أن تنطلق من حلقه. أدارت الأم رأسها بعيدا، مسحت الدموع.. غاصت بأفكارها إلى بعيد..

لقد مات زوجها فى مطلع الأربعينيات. وتركها وحيدة تصارع الفقر والحزن والهم. صرفت مكافأة نهاية الخدمة. لم تزد على السبعين جنيها من السكة الحديد.. لكن المكافأة ذابت كسراب خلال بضعة شهور !

أجل، مات الزوج ولم يبق لها فى الحياة إلا هو : محمود الغالى ! ولكن، هاهو الداء اللعين يفترسه قطرة بعد قطرة، وليس بوسعها أن تفعل له أى شئ. فقد قيل لها فى مستشفى الصدر إن الداء قد استحكم .. و.. وموعد العلاج قد فات !

هبت نسمة هواء، اهتزلها ضوء المصباح الخابى الذى أشعلته الأم منذ لحظة، أعطت الأم إبنها جرعة دواء.. مسكن.. هدأت حدة السعال وزايله الألم الذى كان يجعل صفحة وجهه

تنقبض وتنبسط كأنه واقع تحت تأثير عذاب مروع !

مضت لحظة عاد السعال بعدها أشد مما كان. أحست الأم كأنها تختنق. ارتفعت يدها اليسرى إلى عنقها ومشت أناملها البضة فوق قلادة من الخرز الأخضر.. قالت من أعماقها : آه يا حبيبي لو أن هذه القلادة كانت من ذهب !

ولمعت عيناها فجأة، وسرت في جسدها رعشة غريبة.. ومثيرة. امتد تفكيرها إلي «لحظات شريرة» .. لحظات.. أجل هي لحظات فقط.. لكنها قد تكون السبب في شفاء محمود.. ابنها الوحيد الغالي..

التفت ذراعها حول صدرها دون وعي، كأنما تحاول أن تحمي هذا الصدر «الناهد» من مخلب أسود .. حاد.. كان ينهشه (!)

اكفهر وجهها الصبوح. أرسلت بصرها في الفضاء عبر النافذة. رأت النجوم تخبو وتلمع في صفحة السماء كأنما هناك قوة جبارة تحاول أن تطفئها..

صاح طائر - البوم - في مكان ما.. فتبعته صرخات مترددة من طيور أخرى.. عادت الأم تفكر مرة أخرى في محمود والأسى يعتصرها كما تعصر الماكينة ثمرة غضة. لقد واجهت الحياة بمفردها. رفضت أن تتزوج رغم العروض المغرية. لم

تستمع لقول الناس. شقت طريقها فى الحياة كأشرف أرملة. كان الهدف هو إسعاد ابنها. آثرت أن تخدم فى البيوت ولكنها اكتشفت أن بعض البيوت تضم بين جدرانها ذئابا لها شكل وشبه الإنسان. فهربت ناجية بعفتها خشية أن يدنسها ذئب.. هربت دون أن تدنس قداسة الأم !!

وكبر محمود .. أصبح عمره الآن يزيد قليلا عن ١٠ سنوات.. كانت تتعجل الأيام لتراه رجلاً، رجلاً قويا يحميها من عوادى الزمن.. ولكنه أصيب بالسعال منذ حوالى عام. ظنت أول الأمر أنها نزلة برد.. فراحت تسقيه منقوع اللبانَ الدكر.. وتغلى له شواشى الذرة، وورق الجوافة والصفصاف.. فكان السعال يهدأ لحظة ليعود بعدها أشد.. إلى أن.. شاهدته يبصق دماً أحمر وبدأت دماء الحياة تغيض من وجنتيه.. وأصاب ابنها الغالى النحول.. حتى لقد بدا كعود يابس من الحطب !

ومنذ الصباح بدأت أنفاسه تتلاحق.. وصدره يعلو ويهبط.. فبقيت تنظر إليه بقلب واجف ولب ذاهب.. أرادت أن تخرج. أن تصرخ. أن تستغيث. أن تفعل أى شئ .. ولكنها لم تتحرك من مكانها.. أصيبت بالجمود والخرس معا !

أفاقت من كل الخواطر السوداء التى طافت برأسها على

أنين محمود . انفلتت من حلقها صيحة ألم. اقتربت منه وهى فاقدة لكل وعيها. رأت «الريم» يطفطف فوق شفتيه فمسحته بأنامل مرتعشة وندت عنها أنة مكتومة أشبه بأنة حيوان ذبيح. جحظت عيناها وهى ترى قدميه ترطمان ببعض. وصدره يعلو ويهبط كقربة تخضها فلاحة هزيلة فى كوخ صغير !

مضت برهة وهى أشبه بتمثال من الرخام لا حراك به. ارتعشت يد محمود ، أمسك بجلبابه من عند الصدر، أخذ يئن بصوت متقطع أجش :

- أمى أمى.. إنى أختنق.. ألم تسمعينى يا أمى ؟!

إرتدت توحيدة إلى الخلف دفعة واحدة. قبضت أناملها على زجاجة الدواء . رفعتها إلى مستوى عينيها.. راحت تحدق فيها، هزت رأسها فى أسف . فالزجاجة فارغة تماما.. والدواء وحده هو الذى يوقف هذا الأنين.. هذا العـــذاب.. ولكن.. أين ثمن الدواء!

سقطت زجاجة الدواء من يد الست توحيدة فوق المنضدة. رفعتها وفوق شفتيها بسمة صفراء، أرسلت من حلقها زفرة حرة تمتمت لنفسها باكتئاب :

– ولدى ، ولدى. ليتنى لم أكن على وجه الأرض قبل أن أراك

وأنت بهذه الحال. ليتني - يا ولدى - أستطيع أن أوقف آلامك ولو بحياتي..

إنها ترى بعيني رأسها ولدها الوحيد.. الحبيب.. يموت وليس في جيبها ولا في بيتها كله سوى ثلاثة قروش .. إن صاحبة المنزل طيبة القلب.. تعرف كل شئ وتعذرها.. إن نفسها تنطوى على نزعة خير مثل كل إنسان طيب.. ولذلك لم تطلب منها الإيجار قط.. لأنها تعرف أن حياة إبنها في خطر.. لقد أمهلتها - عن طيب خاطر - إلى أجل غير مسمى !

ولكنها الآن تواجه حقيقة مرة . إنها مسألة حياة أو موت .. ولكن.. موت من ؟! إبنها، وحيدها الغالي، الابن الذي خرجت به من الدنيا، والذى رفضت كل عروض الزواج من أجله..

أطرقت برأسها تفكر قليلاً . ماتت أصابعها على زجاجة الدواء فحطمتها وهى لا تدرى. كانت تنصت بكل نبضات القلب إلى أنفاس محمود .. كانت تصخب في صدره.. وأنينه لا يكاد ينقطع ، وهمهمت لنفسها بصوت محموم:

- آه يا ولدى ! يا حبيبى ! يا عقلي ! يا روحي يا محمود ! ماذا أستطيع أن أفعل لك وأنا عاجزة كما ترى ؟! فأنا من شجرة مقطوعة يا محمود .. سامحني يا ولدى !!

وهبطت الدموع من عينيها مدراراً وهى تفكر فى حياتها الشقية.. واحتياجها الملح ، والظروف التى جعلتها مغلوبة على أمرها.. لقد ذهبت إلى كل معارف الزوج، واقترضت منهم مبالغ لم تردها. لا أمل إذن فى الاقتراض من أحد. إن التفكير فى ذلك مضيعة للوقت.. وأى مضيعة؟!

وانبلج لها فى ذلك الموقف الدقيق شعاع من أمل.. ألم تقل الناس من قديم الأزل أن الحاجة هى أم الاختراع ؟!! وصرخت : لقد وجدتها.. تماما كما قالها أرشميدس من قبل وهو يكتشف قانون الطفو !

وراحت بسمة حزينة ترتسم على شفتيها من وقت لآخر فتكسب وجهها الشاحب عظمة وجلالاً.. عظمة الأم.. وجلال الأم، الأم التى تريد أن تحقق أنبل الغايات بأحط الوسائل ! من غير أن يتسرب إلى ذهنها إلا أنها ضحية ضعيفة من ضحايا القضاء والقدر !!

أجل .. ! .. لم يبق أمامها من وسيلة فعالة غير وسيلة الطريق الشائك ولطالما فكرت فى هذا الطريق من أجل انقاذ ابنها، وهمت أن تسلك هذا الطريق بالفعل، ولكنها ترددت متعللة بأن رحمة الله قريبة منها ومن ابنها.

- واحسرتاه - هتفت بذلك لنفسها.. فقد أصبح هذا الطريق هو الملاذ الأخير.. لأن أحدا لم يعد يقرضها.. ولأن رحمة الله لم تدركها (!)

وركضت أفكارها نحو هذا الطريق وحده. وتواثبت خواطرها حول أشواكه الدامية التي تمزق النفس الأبية الحرة. إنها ماتزال في مقتبل العمر.. على درجة عالية من ملاحة الوجه والجسد .. في ملامحها وسامة لا تزال باقية. وفي عينيها إغراء قوي.. إغراء يشد ثيران الرجال وبغالهم ! وأكثرهم ميلاً إلى الشهوة والدناءة..

وتنهدت توحيدة من قلب مكلوم. لقد سمعت من الشباب - قبل الرجال أن لها بسمة خلابة ونظرة جذابة و.. وتكوينا بديعا.. ولكنها لم تلق بالاً لأقوال كل هؤلاء - الأدنياء ، لأن صدرها لم يكن يتسع إلا لحب واحد فقط هو حبها لوحيدها، محمود ! ولأن عقلها لم يكن يفكر إلا في إسعاده !

قصرت حياتها على حب محمود وحده، ونسيت كل مطالب الأنثى، وحرمت نفسها من ثوب.. أو قميص جديد، أو حتى ربطة رأس ! بل إن موت زوجها لم يخلف فراغا في حياتها. محمود وحده هو الذي كان يملأ كل فراغ حياتها - صار لها الزوج..

والأخ .. والولد !

ورغم كل هذا الحرمان فإنها لم تنس قط أن تغرق محمود باللعب والهدايا.. طائرة.. سيارة .. دمية .. سفينة مزركشة.. كرة أو حصانا ثميناً.

كانت تقدم له كل ذلك لأنه - هو وحده - كل حياتها ووجودها.. كان محمود .. ومحمود وحده هو رجلها ومثلها الأعلى، وكان - وهو صغير - يتقبل هدايا أمه وفوق شفتيه بسمة حلوة، ويرفع إليها وجها تملؤه الطهارة والبراءة - فتقول في نشوة ما بعدها نشوة !

- العب ، العب يا حبيبي .. فكلها لك، لك أنت وحدك..

ولكن هاهو محمود يموت ! يموت ! . صرخت بذلك لنفسها من داخل الأعماق، واستولى عليها يأس قاتل.. شعرت كأن يدا قوية تمتد إلى قلبها الدامي وتعصره عصراً.. تعصره بلا شفقة...

إنها تستطيع أن تخرج الآن. وأن تحصل على أضعاف أضعاف ثمن الدواء لولدها من أول وحش آدمي يصادفها فإن الطرق تعج بالوحوش المفترسة التي لها لون وشبه الإنسان.. إنها تعرف ذلك تماما.. فلماذا لا تخرج - ولو لمرة واحدة -

وتنقذ وحيدها و.. والله يغفر الذنوب ؟!

الله .. يغفر الذنوب ؟ ماهذا يا توحيدة ؟ تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها.. ألم يصل إليك نبأ هذا القول يا توحيدة من الشيخ رجب ؟!

ورددت لنفسها كمخبولة : آه .. إن الشيخ رجب يجلس فوق الكنبة أمام باب الدار كل يوم ويقدم الفتوى لكل من يطلبها من أهل المدينة.. إذا استعصت عليهم الفتوى أو إذا ضلوا المعرفة!!

لقد سمعت ذلك عندما شرعت – أم الخير – أن تترك طفلها لترضع ابن «باشا» .. يومها قال لها الشيخ رجب : إن صغيرك أحق بلبن ثديك من ابن الباشا، وذلك لأن الباشا يستطيع أن يغذى ابنه بوسائل أخرى، أما ابنك فليس له إلا ثديك ! – وتمتمت يومها – وشعور بالخزى قد انتابها، نعم سمعت كل هذا .. ولكن .. ابنى .. ابنى الغالى محمود .. إن الشيخ رجب يعرف كل شئ.. فلماذا لم يتصدق عليها – ولو لمرة – بثمن الدواء ؟! ألم أذهب إليه بالأمس فقط، وخرجت وأنا شبه مطرودة ؟! تباً له !!

إن الشيخ رجب ليس شيخاً .. إنه يدعى أنه قد أوتى حكمة

الأولين والآخـرين .. إنه يفـتى عن الإبرة فى الوقت الذى يعرف فيه أن لديه قابلية لأن يلتهم جملاً (!)

ونسـيت توحـيـدة الشيخ رجب ونفـاقـه.. ونسـيت أم الخـيـر وصغيرها.. وعادت تفكر فى الوسيلة التى تستطيع بها أن تنقذ ولدها من الموت.. فلم تجد غير الوسيلة الوحيدة التى تحتقرها.. وتجـسـدت لهـا فـعلتـهـا أمـام عـينيـهـا.. فى جـمـيع أطوارها ومراحلها.. فارتجفتْ أوصالها رعباً وفزعاً. وشعرت بدوار هائل .. وتراقص كل شئ فى الغرفـة أمـام بـصرها ، وخـيل إليـهـا أن جدران الغرفة تكاد تنطبق عليها. وأنها تختنق . وتموت.. تموت، تماما كالحشرة التى تدوسها قدم عابر السبيل.

ومرة أخرى ، لاحت لها صورة الشيخ رجب، وهتفت :

– لمـاذا لم يقدم لى مـشورة تريح بـالى ؟! تطفئ من النيران التى أحسها تستعر فى صدرى؟!. ولكنها عادت تهتف لنفسها فى يأس :– وهل الشـيخ رجب مكلف بأن يرعى المـرضى وأن يطعم الجـوعى؟! وأن يمـد المـعـوزين بالمـال ؟!! لا، لا، لا يا توحيدة ، لا تظلمى الرجل، ولا تخلطى بين بؤسك وألمك بأحوال الآخرين. فمن يدرى .. ربما كان الشيخ رجب أيضا معذوراً، ولو كان بوسعه أن يفعل شيئا لوفر عليك مذلة السؤال.

وأيقظها من خواطرها سعال محمود. كان يسعل هذه المرة بقوة. فارتجفت الست توحيدة كما ترتجف الزهرة تحت ضربات الريح ! ورأته يدير في الحجرة عينين تائهتين.. فأظلمت الدنيا أمامها.. وامتدت يدها إلى ثوبها الأزرق وارتدته بلا تفكير، إذا لم يكن هناك أي مجال للتردد وابنها الغالي يتعذب!!

ورمقها محمود بعينين خبا بريقهما، وهز رأسه بصعوبة ، وارتجفت شفتاه التي أصبحت شبيهة بخطين من الطلاء الأزرق. وضغطت يده الواهنة فوق يدها التي مدتها إليه كأنه يريد أن يستبقيها إلى جواره.. ولكن الأم لم تفهم معنى لهزة رأسه ولا معنى لهمهمته الخافتة.. لم تفهم إلا أنه يتعذب.. وأنه في أمس الحاجة إلى الدواء..

ونكست رأسها خجلا. وشعرت أن رأسها قد أصبح أكثر ثقلا من جبل فوق كتفيها.. وكادت تضعف أمام نظرات محمود المتوسلة.. الخابية.. كادت أن تخلع ثوبها الذي كان له لون شفتي وحيدها الغالي..

وشعرت نحو نفسها باشمئزاز غريب. شعرت أنها تحتقر نفسها لأقصى حد.. ولكنها تمالكت نفسها، وقالت وفي عينيها نظرة ألم وعطف :

– لن أتأخر عليك يا حبيبى. سأبحث عن صديق ! لأقترض منه ثمن ...

ولم تستطع أن تكمل كلامها. فأخفت وجهها بين راحتيها، واعترتها هزة قوية.. فقد توهمت أن محمود يرمقها باحتقار.. توهمت أنه فهم كل شئ.. وأنه .. وأنه يلعنها، يلعنها كأم باعت نفسها للشيطان من أجل ثمن دواء قد لا يكون فيه الشفاء.. توهمت أنه يلعنها بكل ماليه من نبض واهن.. يلعنها.. يلعنها إلى الأبد!

صرخت : حنانيك يا ولدى، لا تنظر إلى هذه النظرة ، إنى أتألم، رفقا بأمك يا محمود ، لم يبق فى طوق أمك إلا أن.. ورددت فى همس : أجل .. إلا ..

واستجمعت توحيدة كل قواها المتخاذلة.. سيطرت على أعصابها المضطربة حتى لا تضعف أمام نظرات ابنها التى شعرت أنها تكاد تحرقها. انطلقت كسهم مارق. هبطت الدرج بلا وعى .. وخلال ثوان معدودة كانت فى الشارع ، وليس فى ذهنها غير صورة زجاجة الدواء لابنها..

ابنها ؟! وحيدها! حبيبها الغالى .. أتتركه يتعذب وفيها عرق ينبض ؟! لا.. وألف لا.. إنها تريد فقط أن تراه معافياً وتموت !!

وراحت تزحف في الشوارع بلا هدف، كثعبان شريد يزحف فوق أرض خالية من الشقوق والناس تطارده بالعصي من كل اتجاه. ربما كانت فعلتها تؤذي الضمير الحي .. لكن ماحيلتها؟!!

وعندما وصلت إلى هذا الحد من التفكير شعرت براحة غريبة.. ولاح لها خيال رجل يتسكع تحت عمود النور، ما أن شاهدها حتى زحف ناحيتها كالأفعوان . ولم تكن بحاجه لأن تعرف أنه من كلاب المتعة الحرام. كلب . مسعور. يبحث عن جثة لينهش عفتها.. ويدفع لها الثمن، وما أغلى التضحية وما أرخص الثمن !

وخلال دقائق كان قد تم الاتفاق بين الوحش والفريسة.. بعد غمزة ولمسة ! عجوز ، متهالك. كلب .. أجرب ، لو كانت خالية من هم محمود لبقرت بطنه لمجرد نظرة فاجرة منه.. ولكن، ماحيلتها وكل همها هو إنقاذ محمود من موت محقق ؟!

مشت إلى جوار الكلب العجوز بفؤاد منسحق تماماً.. ودلفت معه إلي منزل وحيد وهي تشعر بالأرض تميد تحت قدميها كأنها تمشي فوق جبل من وحل ! وقضت معه دقائق رهيبة . قاسية . سحقت خلالها كل إحساس عندها بقداسة الأمومة .. وبالرغم

من ذلك فإن ثمن الدواء لم يكن كافيا.. فاضطرت أن تبحث عن كلب آخر.. ووجدته بسهولة أيضا.. فالكلاب التي من هذه الفصيلة أكثر من الهم على القلب!

وعادت شبه منسحقة إلى البيت ومعها الدواء. كل الدواء. كانت تقبض عليه وكأنها تقبض على كل كنوز الأرض.. وتبقت معها بضعة قروش لم تشعر بها فسقطت منها وهي لا تدرى..

وبكت. بكت طويلا وهي تصعد درج السلم، وصرخت من أعماق أعماقها: ضاعت قيمتك يا توحيدة كامرأة حرة!! وهرولت إلى ولدها ملهوفة. ونادته بأعذب ما تنادى به أم ولدها الحبيب، الوحيد:

– قم يا حبيبى، لقد آن لك أن تخف!

ولكن محمود لم يرد.. وصرخت صرخة شقت سكون الليل:

– ولدى.. محمود.. حبيبى.. سامحنى..

ولكن محمود لم يرد. كان قد انتهى. وضاع شرفها في هذه الليلة المشئومة، لأول.. وآخر مرة!!!

# شبح نصف الليل

إمتد نظر «مختار» إلى أمواج النيل التى تترقرق تحت أشعة الشمس الغاربة ثم التفت إلى أصدقائه الأربعة وتنهد، وقال بصوت حاول أن يخفى الرعشة التى تغشته :

– لا أعتقد أنه سيصدق هذه القصة بسهولة ومع ذلك فليس هناك ما يمنع أن أؤكد أنها وقعت لى أنا .. شخصياً.

وتنهد . ومسح العرق الذى تفصد من جبينه، ثم استطرد وكأنه واقع تحت تأثير قوة خفية :

– كان ذلك فى مطلع الأربعينيات.. وكنت وقتها فى الرابعة والعشرين عندما انتدبت للعمل فى أسوان ، ومن الطبيعى أن من يذهب إلى أسوان كان لابد له من زيارة الخزان الذى يبعد عن المدينة بحوالى كيلو متر واحد إلى الجنوب .. كما كان لابد

له من زيارة مـابقي من أطلال قـصـر أنس الوجـود، وبعض الأمـاكن الأثرية التي مـازالت تحتفظ برونقهـا وبعطرها القديم بالرغم من مرور عدة ألوف من السنين!!

ومضت لحظة لم ينطق خلالها مختار. وراح يتأمل وجوه الأصدقاء الأربعة وكأنه ينظر إلى شئ يراه من بعد سحيق، ثم قال:

– وذات ليلة أحسست بأرق شديد ، وبقلق مبهم.. فخرجت بعد منتصف الليل من غرفتي بالفندق القريب من النهر، ومشيت على الشاطئ الساحر أستروح النسمات العطرة، ولا أستطيع أن أحدد المسافة التي مشيتها بالضبط، فقد كنت أحس بارتياح شديد وأنا أتابع أمواج النيل الساحرة والقمر يضفي عليها لونه الفضي الجميل.. المهم. لم أشعر إلا وأنا أمشي بجوار أشرطة السكك الحديدية، حيث هناك من الشمال توجد ورش الوابورات – تلك التي كانت تعمل قبل تصميم قاطرات الديزل – !! أصابني دهش عميق وأخذت أحملق في الوابورات التي كانت تقف مصطفة كالأشباح فوق قضبانها الحديدية.. وهتفت لنفسي في عجب :

– ترى .. ماالذي أتى بي إلى هنا؟!

لم أجد جوابا !! فهززت رأسي وأردت العودة إلى شاطئ النيل، ولكني وجدت نفسي أسير في قرية «الحكروب» وهي قرية صغيرة تقع تحت الجبل الشرقي وتدور حولها حكايات وأساطير بعضها مزعج ومرعب ، ولكن بعضها الآخر ضاحك ومرح، بل ويجلب المسرة إلى النفس !! ورحت أحملق في الجبال الشاهقة وقد تبلدت كل أحاسيسي ، وهتفت :

– ترى ماالذي نقلني إلى شرق المدينة بعد أن كنت في غربها؟! لم أجد جواباً على السؤال الذي ألقيته على نفسي ! ولكني أحسست بتوتر شديد، وبخوف مبهم. وبدأ قلبي يدق بقوة.. وأثناء سيري كدت أصطدم بشئ غريب .. شئ لم أعرف له كنها.. هل هو إنسان ؟!! هل هو .. مارد ؟!!.. المهم.. قابلني شبح.. أي والله .. شبح غريب .. في طوله .. في عرضه .. في وجهه المستطيل الذي ينم عن شذوذ مطلق في ملامح الإنسان (!) قلت لنفسي بخوف : لابد أنني أمام لص.. وغد، من أولئك الذين يخفون وجوههم وراء قناع من أقنعة الشياطين، أو أنني - على أفضل الأحوال – أواجه واحدا من قطاع الطرق.. أولئك الذين يتصدون للناس في مثل هذه الأمكنة الخالية لسلب أموالهم..

وقفت أرتعد. ولابد أن هيئتى كانت مخيفة ! فقد وضح ذلك من اصطكاك أسنانى !

فوجئت بذلك الشبح يشعل لفافة تبغ، فوضحت كل ملامح الوجه.. ترى ماذا رأيت ؟! هل رأيت وجه مخلوق مخيف ؟! هل تبينت على الضوء الشاحب السريع لعود الكبريت وجها شيطانيا؟!.. لا والله ! وإنما رأيت أجمل رأس.. وشعر.. ويدين. وقال بصوت رفيع لم أسمع مثله قط :

– أأنت غريب ؟!

قلت وجسدى كله يرتعد :

– نعم .. فأنا . . .

ورأيت وجهه يتجهم ، وملامحه كلها تنقلب إلى هيئة مخيفة.. هيئة أشبه بهيئة الأموات ! فأمسكت عن بقية الكلام، وتنهدت.. ورحت أقرأ المعوذتين والصمدية وآية الكرسى.. ومع ذلك فقد سمعته يقول وهو غير ملق لأى أهمية لى :

– خسارة ! لو كنت – حيا مثلى – لانطلقت خفيفاً وحراً فى هذا الكون البديع !!

وهنا فقط أحسست بجسدى كله يرتجف كورقة فى مهب الريح.. ثم .. ثم لم أعد أشعر بشئ !!

وأخذ خالد يتصفح وجوه الأصدقاء الأربعة واحداً بعد الآخر، ومضى في روايته العجيبة فقال :

– استيقظت من غشيتي فوجدت نفسي غارقا في بحر من العرق البارد.. وكنت أشعر بهزال شديد ، وبضعف غير عادى في النبض.. وكانت السحب وقتها قد انجلت تماما عن وجه القمر.. ونبتت في رأسي فكرة : لقد سمعت كثيرا عن المردة والشياطين، وأشباح القتلى.. أفيكون الشبح الذى قابلنى.. واحداً من هؤلاء ؟!

وعند هذا الحد من التفكير انتابتني قشعريرة أكثر هولاً من قشعريرة الموت، وهتفت!

– أهذا .. ممكن ؟!

– أرأيت ماردا؟!

– أم شيطانا ؟!

– أم شبحاً مقتولاً ؟!

كل هذا جائز، فقد كانت كل الدلائل تؤكد أن ما رأيته واحداً من هؤلاء !!!

لقد كانت لحظة قاسية لم أصمد لها. هذا حق.. ولكن لو أنني

ذكرت هذه القصة لواحد من معارفي فماذا - يا ترى - يكون وقعها عليه ؟!

وتعالت صفارة قاطرة من المحطة ، تنبئ عن استعداد قطار الفجر للقيام إلى الشمال. وكانت الدنيا مازالت مغبشة - بعد احتجاب القمر خلف الجبل.. فهرعت إلى الفندق كي أنال قسطاً من الراحة، وأثناء صعودي لدرج سلم الرصيف مرق من بين قدمي (خنزير) صغير، فانتابتني غشية كغشية الموت وهتفت :

- ترى ماهو الفارق بين مارد جبار وخنزير وديع كهذا الذي مرق من بين قدمي تواً؟!.. لا فرق !! ففي الحالتين انتابتني رعدة وغشية..

ومضى مختار يكمل قصته فقال :

- عدت إلى غرفتي بالفندق وبقيت بها طوال النهار حتى جئتم، ولاحظتم ما أنا فيه من تغير.. وها أنذا، أراكم تتساءلون وتلحون وراء السبب، وأقول لكم - بكل صراحة - إنني أحس بنفسي تكاد تنقبض غماً وكمداً ، ذلك لأن هذه القصة - إن لم تكن خرافية أو من القصص التي لايمكن تصديقها بسهولة - فكيف أستطيع أن أضرب صفحاً عنها ؟!!

أو كيف أستطيع أن أذكرها دون أن أشعر بحرج؟!

وعندما انتهى خالد من سرد قصته وملاحظاته عليها، أخذ الأصدقاء الأربعة ينقلون البصر فيما بينهم ولسان حالهم يقول :

وهذا واحد من الذين يروجون الخرافات !!

# مخاوف صغيرة

الوقت ! ليلة من ليالى الشتاء الباردة. عدت إلى المنزل في السابعة مساء. أضأت النور، غسلت وجهى.. ثم ألقيت بنفسى ثقيلا فوق مقعد وثير قائم بجوار الشرفة. أسندت رأسى إلى ظهر المقعد فى جلسة مسترخية ريثما أسترد بعض قواى.. لم أشعر من قبل بمثل هذا الإرهاق بعد أن قضيت يوما حافلاً بالعمل فى مشروع هندسى جديد فى صحراء الهرم..

هبت لفحة ريح غاصت لها رؤوس الأشجار وارتعشت أوراقها.. الشارع صامت مظلم.. عدا أنات صدرت عن سلوى.. الطفلة الصغيرة الجميلة التى تقيم مع أمها فى المنزل المجاور . تكررت أنات الطفلة .. ماجت فى قلبى مشاعر متدفقة. قوية

متلاطمة، همست لنفسي :

– لابد أن سلوى وحيدة.. يا للصغيرة !!

مددت رأسي إلى شرفة سلوى لأعرف ماالذى يبكيها.. رأيتها – كانت قد رفعت رأسها إلى فوق حافة الشرفة ، وتلفتت يمنه ويسرة ثم قالت فى شبه أنين : أمى ، أمى، أين أنت يا أمى؟

قالت ذلك بصوت حزين تهتز له خوالج النفس. قلت لنفسى :

– ترى أين تذهب أم هذه الطفلة؟! وكيف يهون عليها أن تترك طفلتها الصغيرة هكذا وحيدة؟!

ضاق صدرى لبكاء الطفلة الذى لم ينقطع، وخامرنى إحساس قوى بأن أذهب إليها كى أبدد المخاوف من نفسها، لكن.. ماذا – يا ترى – تقول الأم لو أنها حضرت ووجدتنى فى بيتها ؟!!

إنتابتنى الحيرة، بينما تعالت أنات الطفلة : أمى ، أمى أين أنت يا أمى .. أنا خائفة يا أمى ! وجائعة يا أمى !.

كان فوق طاقتى أن أحتمل. كان صراخ الطفلة بالجوع كشحنة كهربية دفعتنى إليها دفعاً، بغض النظر عما يترتب على ذلك من نتائج.. ولتذهب أمها إلى الشيطان!!

هرولت إلى سطح المنزل بخطوات ملهوفة. وطرقت الباب فتحت الطفلة والفرحة الملهوفة تطل من عينيها السوداوين.. ولما تبينت أن الطارق لم يكن الأم.. تراجعت إلى الوراء فى ذعر.. ثم وقفت تحملق فى وجهى فى خشية ورهبة.. وأخذ جسمها الناحل يهتز فى رجفات عصبية ولم تنطق بحرف!

تأملتها فى حنان غريب ، هى هى ، صورة طبق الأصل من أمها .. حاجبيها . أهدابها .شفتيها.. أنفها.. شعرها .. يديها..

هتفت : سبحان الله . الفرع من جنس الأصل ! امتدت يدى إلى شعرها تمشى فوقه بحنان، ثم خطوت إلى الداخل وأضأت النور، ولمحت وجهها البرئ وقلت :

– لا تخافى يا سلوى .. فأنا جار طيب .. شريف وعفيف ، وليس لى من غرض إلا أن أبدد من نفسك المخاوف إلى أن تحضر أمك..

تراجعت سلوى إلى الوراء .. ثم أشارت إلى مقعد مجاور للسرير فى اكتئاب واضح ، وقالت فى لفتة حلوة :

– معذرة أيها الجار ! فأنا صغيرة كما ترى، لذلك لم أتمكن من إضاءة النور.. تفضل .. إجلس..

قدمت لها وجبة الطعام.. فوضعت عروستها فوق حافة

السرير، وقضمت لقمة، ثم رمقتني وقالت بخوف :

– عندما تغيب أمي لا أدري لماذا أشعر بأن المسكن كله يعج بالشياطين والأشباح و.. وأمنا الغولة !

وتنهدت وهي تجلس فوق حافة السرير إلى جوار عروستها وعادت تقول :

– إنني أخاف من العفاريت . أراها دائما وهي تهبط من فوق رءوس الأشجار.. وتقترب مني .. وتحاول أن تفترسني ! وراحت تفكر لحظة وهي تمضغ الطعام .. وعادت تقول :

– قل لي أيها الجار .. لماذا تظهر الأشباح رغم إخفاء الوجه وإغماض العينين ؟!

ضحكت وأنا أتصفح ذلك الوجه الصغير البرئ، وقلت :

– لا يا سلوى . لا يوجد شئ اسمه شبح.. وإنما هي خيالات ليست لها يد تمتد بالأذى لمخلوق !

شاع الاطمئنان في وجه سلوى لحظة ، ثم جذبتني من كم القميص وهي تقول :

– هيا بنا إلى الشرفة. أنظر .. بماذا تفسر هذه الأشباح التي تشبه الضوء؟!

لثمت يدها الصغيرة، وقلت :

- لا يا سلوي. هذه الخيالات ليست أجساماً، وإنما هى انعكاسات الأضواء التى تنبعث من مصابيح السيارات التى تمرق من آخر الشارع !!

بدا على سلوى أنها اقتنعت بما قلت . وأردت أن أعرف شيئا عن حياة أمها، ولماذا تغيب كثيرا عن المنزل ، لكننى شعرت بالحرج، وسرنى أنها قالت من تلقاء نفسها :

- لابد أن أمي تأخرت لسبب خارج عن إرادتها.. أنا أعرف أنها لا تطيق البعد عنى منذ أن توفى أبى فجأة فى العام الفائت!

أحسست بكلماتها البريئة تنفذ حتى أعماقى ، وتمتمت فى حسرة.

- ليت كانت لى زوجة كأم هذه الطفلة، وطفلة حلوة كهذه الطفلة.. تبددان الظلام المخيم على حياتى البائسة!

وأجلت البصر فى الحجرة الرحبة. كانت نظيفة .. منسقة.. وتمتمت لنفسى : لا تستطيع يد أن تفعل هذا إلا يد المرأة.. أنها تستطيع أن ترتب كل شئ بهيئة تبهج النفس !

ورمقت سلوى وقلت باسما :

- يبدو أن أمك تعنى بترتيب مسكنها عناية خاصة .. فإن غرفتكم هذه أجمل بكثير من غرفتى !

- أمى كما تقول أيها الجار الطيب.. وكل الجيران يشهدون لها بالبراعة والتفوق فى تنسيق المسكن.. ونظافته!!

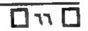
رمقت ساعة معصمى فوجدتها تشير إلى منتصف الليل. وبدأت الأفكار تناوشنى. هل أقضى الليل مع سلوى؟!

ومضى الوقت بطيئا.. ثقيلا.. وسلوى تنصت لكل صوت. وسرعان ما اختفت الطمأنينة التى كانت تشيع فى كلامها.. وعندما دقت الساعة تعلن الواحدة ، رمقتنى وقالت بخوف:

- أمى، لماذا تأخرت . قل لى يا سيدى.. أرجوك ، فليس لى فى الدنيا إلا هى..

قالت ذلك وانكمشت على نفسها، ثم اندست تحت ملاءة وردية بلون خديها الموردين. ولم يعد باديا من جسمها غير وجه صغير تطل منه عينان جميلتان ولكن ينبعث منهما شعاع يبدو فيه الخوف.. وبدأت تبكى ..

أحسست للحظة بالكراهية لأم سلوى .. فقد بدأ الخوف يفترس قلب الطفلة.. بل خيل إلى أن الرعب قد بدأ يسحق قلبها الصغير.. البرئ.. مشيت إلى الشرفة وتلفت يمنة ويسرة ولكننى



لم أجد أحدا .. وبدأت الطفلة فى بكاء لا ينقطع.. فرمقتها فى برم ! وشعرت بالعرق يبلل جبينى، وتمتمت فى ضيق :

– يا إلهى .. ما هذا البلاء العظيم ؟!

وداهمنى شعور مباغت بأن فاجعة قد وقعت للأم، أجل فاجعة أعجزتها عن العودة إلى البيت فى الوقت المناسب، وهمست لنفسى بصوت متحشرج :

– أجل ، أجل .. لابد أن الأم لم تتأخر إلا بفعل فاجعة حلت بها !

ودقت الساعة تعلن الثانية صباحاً ، ورحت أتلفت حولى بقلق. بل اعترانى قلق خفى.. قلق صاعق.. أحسست به يرج قلبى ويعصره عصراً. رفعت عينى إلى السماء. كانت صفحتها سوداء.. وأخيرا .. أخيرا جدا.. تناهت إلى أذنى حركة خافتة صدرت من عند باب الشقة، فاستدرت نحو مصدر الصوت. كانت هى . أم سلوى. اقتربت من فراش طفلتها، ومالت نحوها بكل شوق ولهفة الأم، ثم أيقظتها واحتوتها بين ذراعيها، وراحت تلثم شعرها، بينما ندت عن سلوى صرخة فرح، ثم تعلقت بعنق الأم وقد أضاء وجهها بشرا :

– أمى، لماذا تأخرت كل هذا الوقت يا أمى ؟!

وراحت الأم تتأسف لطفلتها عن التأخير، وقدمت لها قطعة من الحلوى وهى تقول :

- هيا حبيبتى .. كليها .. كلها .. وأعدك بأننى لن أتأخر عنك مرة أخرى بعد اليوم.. لن أتأخر أبداً .قالت ذلك وجرى دمعها مدراراً. أحسست ببكاء الأم يقع على قلبى وقوع النار على البارود. وتجسد فى نفسى شعور بالحرج لم أتبينه إلا أخيرا. وبلل العرق جبينى.. فالطفلة نسيتنى تماما. والأم لم تتبين وجودى . لم يقع بصرها على حتى هذه اللحظة فى غمار لهفتها بلقاء البنت..

وصدرت من حلقى سعلة أكثر شبها بسعلة مقرور. استدارت الأم نحوى وقد ارتسم على وجهها فزع مباغت.. ثم انتابتها هزة عنيفة كمن تكون قد صعقت.. فاعتمدت بيدها على حافة السرير خشية السقوط. تقدمت نحوها. صرخت فى عينيها الجميلتين وقلت :

- أين كنت أيتها السيدة حتى هذا الوقت المتأخر؟!

إنكمشت على نفسها. علت خديها حمرة قانية. كادت تفقد توازنها. تداركت نفسها. قالت فى ابتسامة مغتصبة :

- كنت .. كنت فى عملى أيها الجار !

طاف بخاطرى أنها تحاول أن تختلق عذرا لهذا الغياب. صوبت إليها نظرة حافلة بالشك. ويبدو أنها تبينت ذلك، فقد أطرقت فى حياء بالغ، قلت فى غضب :

- عملك؟! وهل هذا العمل أحق من رعايتك لطفلتك؟! ظهر عليها شئ من الامتعاض، ثم لاحت فوق شفتيها بسمة ساخرة وهى تقول بصوت عميق يبعث على الرهبة :

- ليس هناك أم فى الوجود تهمل رعاية طفلها طواعية..

قلت فى ضيق :

- إذن .. لماذا تركت طفلتك وحيدة فى بيت ليس به أى إنسان؟!

قالت فى شبه حشرجة :

- صه.. فإن الآلام تغمر قلبى ولست فى حاجة إلى المزيد ! إننى أيها الجار أعمل مربية عند أسرة ثرية من أجل توفير القوت الضرورى لهذه الطفلة. وقد رأت هذه الأسرة أن تشاهد إحدى المسرحيات وعهدت إلى برعاية أطفالها حتى تعود .. ولكنها.. ولكنها تأخرت.. فاذكرلى أنت. كيف يمكن لمن كانت مثلى أن تكسب قوتها إن لم تصدع بالأمر ..؟!!

ومضت برهة صمت. عادت بعدها السيدة تقول وهى تتلعثم

بالحنق والغيظ وقلة الحيلة :

- قل أيها الجار .. قل .. ماالذى بوسع ضعيفة مثلى أن تفعل ؟ لقد ترملت .. وتيتمت طفلتى وهى دون الخامسة.. وغاضت السعادة من قلبى وهو لم يزل فى قمة الفرحة، وانهدم الأمل فى زوج يعامل الطفلة فى غير جفوة زوج الأم ! فماذا أفعل ؟! قل.. أم أنك لا تريد أن تنطق بكلمة حق !!

وكأنما تنبهت فجأة لوجودى وما قد يثار حول سمعتها من أقاويل فقطبت جبينها، وزمت شفتيها، وقالت فى شبه صراخ :

- ولكن .. قل لى أيها الجار .. ما الذى جاء بك إلى بيتى ؟!

أحسست بدمعة تهطل فوق خدى . بينما وقفت السيدة أمامى وأشارت بسبابتها إلى الباب وقالت بصوت أحسسته كأمواج من لهب تحرق وجهى :

-أهذه دموع الشفقة ؟! أم دموع الذنب؟! قلت لك ماالذى جاء بك إلى هنا فلم ترد.. أخرج. أخرج من هنا يا رجل قبل أن تلوث شرفى بسوء السمعة ، شرف سيدة شريفة وبريئة ولا تريد من دنياها إلا الستر..

أذهلنى تهديدها الصارخ الذى أشعرنى بالدونية ! ولم ينقذنى إلا سلوى ، التى صاحت تقول بلثغتها الحلوة :

– إن جارنا الطيب جاء لأنني كنت أبكي يا أمي . ثم قدم لي وجبة من الطعام وظل يتحدث معي حتى نمت ..

إنهارت الأم فوق مقعد كاسفة البال. كانت مضطربة ضجرة. شاحبة.. وهي تعض شفتيها المكتنزتين في خجل. و.. ومشيت إلى الباب. وأحسست بدوار كاد يلقي بي إلى الأرض.. وسمعت السيدة وهي تقول بصوت متقطع متهدج :

– لابد أنك ستصفح عني أيها الجار.. فأنا أرملة وأحرص على شرفي من الهمز واللمز..

ومضت لحظة صمت. كنت خلالها أحاول أن أتمالك نفسي، بينما أضافت السيدة في رجاء :

– أيها الجار ، ينبغي أن تعلم أنه لن يهدأ لي بال إلا إذا علمت أنك قد صفحت عني ..

قالت ذلك واغرورقت عيناها بالدمع. استدرت نحوها . قلت وأنا أرمقها بكل الإعزاز :

– لاعليك ! فليس هناك ما يدعو للصفح. فهذا واجبك نحو نفسك وشرفك ومستقبل البنت !!

وأحنيت رأسي وأضفت :



– سيدتي ، ينبغي أن تعلمي أنني أحب كفاح الأم.. الأم التي تخرج إلى ميدان الحياة لتصارع أمواجها المتلاطمة سعياً في طلب الرزق.. ثقي من ذلك يا سيدتي..

وخرجت ، وصوت سلوى يناديني في براءة طفولية محببة :

– أيها الجار الطيب. أرجوك .. لا تحرمني من مؤانستك الحلوة..

كان الجو بارداً في الخارج، ولكني خلته فياضاً بحرارة الربيع. واندسست في الفراش، وأنا لا أعلم أي الإثنتين حلت في قلبي : الطفلة.. أم الأم ؟!!

وأغمضت عيني قليلا.. وأحسست كأنهما جزء.. لا ينفصل عني.

# فتاة نبيلة

أقبل الليل، واضفى على التلال العالية لونا رهيبا من الظلام، وفى خندق صغير، لا تطل منه سوى رءوسنا، كان كل الرفاق يضعون أيديهم على الزناد.. وعلى شفاهم ابتسامة صافية لأخوة نقية بارة..

كنا فى انتظار كتيبة للعدو ونعلم سلفا أنها ستقوم بهجمة غادرة على اللاجئين الذين يعيشون فى الخيام ! هل نترك هذه الكتيبة لكى تبطش باللاجئين العزل ؟ أبدا .. أبدا.

ومضت ساعة. رأينا بعدها كتيبة قادمة عن بعد. وما أن صارت قريبة من متناول رصاصنا حتى شرعنا فى حصدها، ثم رحنا نتعقب الفلول الباقية من أفراد الكتيبة الذين فروا من أمامنا كجرذان مذعورة..



وعندما انتهينا إلي الطريق البعيد رأينا أشباحا تنتصب جامدة وكأنها مردة تترصد فريستها!. إنها كتيبة أخرى للعدو وتريد أن تضيف إلى جرائمها المزيد.

وبعد لحظات.. كان الرصاص ينطلق من فوهات مدافعنا الرشاشة كالسيل المنهمر، وبدأ يشق صمت الليل صراخ الجرحى من أفراد العدو المتجبر المغرور..

وفجأة، شعرت بصدمة قوية في ساقي اليمنى، وبشئ وآخر حار لزج ينزلق فوق ظهرى، وتراقصت التلال السوداء أمام بصرى كأشباح رهيبة. ثم.. لم أعد أشعر بأى شئ!

- لقد نجوت من الموت بأعجوبة..!

كانت هذه هى أول كلمة سمعتها من الطبيب المعالج. ورحت أرمق الطبيب وأنا ساكت خائر. وحز فى نفسى أن أرقد فوق السرير وأنا شبه عاجز بعيدا عن المجاهدين.. بعيدا عن الرفاق الذين أخذ واعلى عاتقهم تطهير أرضنا شبرا بعد شبر من أرجاس الصهيونية التى تريد أن تستولى على أرضنا بالقوة!

وقضيت قرابة الشهر وأنا طريح الفراش لا مونس لى إلا الممرضات يسعين إلى بين الفينة والفينة وفوق ثغورهن بسمة مشرقة. لقد فقدت ساقى .. و .. وجزءا من كتفى ! وحز فى

نفسى أن أبقى عاجزا بعيدا عن بقية رفاق الكفاح !

وقد حدث مرة أن كنت أتسامر مع إحدى الممرضات وهى تحاول جهدها أن تجعلنى أسيطر على نفسى ثانية وأسعى إلى أمل جديد، وبينما هى تحدثنى.. إذ بجريح جديد يجئ وهو قائد فى إحدى فرق المقاومة الشعبية.. فتطلعت ناحيته علنى أجد مؤنسا ورفيقا.. فإذا بى أصعق وأكاد أصرخ عاليا :

- لا أريد أن أراه .. لا أريد أن أراه..

لم يكن وجهه يطالعك منه سوى حروق فظيعة، وتشوهات بالغة.. كان قطعة من اللحم الملطخة بالماء.. عندئذ فقط هان على خطبى. وعرفت أن تلك الساق التى فقدتها أهون بكثير من هذا الشاب الذى طمست قنابل النابلم.. الرهيبة الفظيعة.. وجهه إلى الأبد، وهو مازال غصنا رطيبا..

وبينما تجول فى نفسى هذه الخواطر السوداء ، إذا بى أجد شيئا يتحرك فى وجهه هما الشفتان، ثم أخيرا أسمع صوته قويا رائعا وهو يبدؤنى أنا.. بالتحية !!.

استجمعت شجاعتى وأخذت أحاول جهدى أن أهون عليه مصابه، ولكنه ابتسم.. أو كأنه يفعل ذلك وقال لى :

- إننى لا أهتم بما أصابنى .. ولكن .. لا أدرى كيف يمكن

لخطيبتى أن ترانى وأنا بهذا التشويه..!!

كان يقول ذلك وهو يقبض على عمود السرير بشدة حتى لكأنه يريد أن يعتصره. وتدخلت الممرضة معترضة على هذا الرأى، وأشارت عليه أن يرسل فى طلب خطيبته فى الحال، وبخاصة أنها تعرفها!

شعرت بالدنيا كلها تسود فى عينى وهو يتوسل إلى الممرضة ألا تخبر خطيبته ولكن الممرضة أصرت على أن تعرف الحقيقة. فقال الشاب ونبرات صوته تدل على القلق والانزعاج:

- أرجوكى !.. لا تخبريها.. لا تخبريها!

وكأنما أدركت الممرضة ما يجول فى خاطره، فقبل أن يوجه إليها أى سؤال، كانت قد اجابته بأنها تعتقد أن خطيبته لن تصدم برؤيته على هذه الحال!

وأومأ الشاب الذى تلفه الضمادات موافقا، ولكن دون أن ينطق بكلمة واحدة.. وأسند رأسه على الوسادة وغرق فى التفكير.

.....

وأخيرا، جاءت الخطيبة ، وشعرت بأنفاسى تكاد تجمد فى صدرى وأنا أرمقها، كانت فتاة غضة بل آية من السحر

والجمال. وما أن وقع نظرها على خطيبها حتى ارتسمت على شفتيها ابتسامة الأمل، واكتسى وجهها بسعادة اللقاء.. وكأن خطيبها الحبيب لم يفقد فى هذه الحروب الضروس شيئا.. مما جعل خطيبها يطمئن.. ويستسلم إلى ذراعيها اللتين أطبقتا عليه .. حبا وإخلاصا؟

# فتاة صامتة

كلما اقترب موعد زيارتى لأسرة خطيبتى «كوثر» انتابنى الضيق والحنق، كالإنسان الذى يميل إلى الهواء والعزلة ويتدخل فى حياته فجأة شخص آخر يجبره على مشاهدة حفلة صاخبة تختلط فيها الصرخات بالصفير.. مع بكاء الأطفال!!

فقد اكتشفت أن خطيبتى «كوثر» تنظر إلى من عل كأنها تعتقد أنها قد انحدرت من أرومة لم يكن يجب على مثلى أن يتطلع إليها، وهكذا أدركت أن خجلها المصطنع لم يكن إلا ستارا لعقد القرآن!!

فجعت فى خطيبتى وانتابنى الندم لأننى لم أختبر أخلاقها وطباعها وعاداتها قبل أن تقع الفاس فى الراس كما يقولون. لماذا أراها متعالية، لماذا تلوذ بالصمت، بل ماهى الأسباب

التى تجعلها تميل إلى العزلة وقد عقد القرآن وانتهى الأمر؟!

طافت برأسى كل هذه الخواطر ولم أجد جوابا مقنعا. إنها شريفة ليس فى ذلك ريب، عفيفة ليس فى ذلك شبهة، أسرتها مستقيمة ومحافظة - ولم يحدث يوماً فى حياتها مايشين، هذا ما قاله لى صديقى «رجاء» الذى قدمنى إلى أسرتها، وهذا هو أيضا ما اكتشفته أنا فعلا، ولكن كوثر فيها شيء معقد. شئ لم اكتشفه بعد.

إن كوثر جميلة تبدو على تقاطيعها سيماء الطهر والخشوع ولكن صمتها يلقى على جمالها قناعا من البرود، متحفظة ولكن يشوب هذا التحفظ نوع من التكلف الفاجع، فهى إذن جامدة، باردة، صامتة.. ومعنى هذا أن طبيعتها لا يمكن أبدا أن تلتقى مع طبيعتى المرحة!.. ولو أدركت ذلك منذ البداية لآثرت الهروب من طريقها وتمنيت لها السعادة مع شخص «بارد» غيرى!! ولكن.. إن الاتفاق على «الزفاف» تم وفاتت الفرصة.. فهل أسجن نفسى بيدى مع فتاة أعلم سلفا أن طباعها تتنافر مع طباعى؟!

واقترب موعد الزيارة وأنا متردد، تطوف بذهنى أفكار وخواطر قابضة، ولكن والدها كان قد دعانى على العشاء ولم أرفض دعوته، وليس من حقى إهدار هذا الوعد، وهكذا.. أخذت

طريقى إلى بيت كوثر مضطرا.. !!!

وفى الطريق هجس فى صدرى خاطر غريب هو التحلل من قيود هذا الزواج، فأنا لا أريد أن أتزوج من دمية جميلة، ولست من الغفلة بحيث أرتبط بفتاة شبه بكماء ، والحل الوحيد فى مثل هذا الظرف أن أبدو أمامها جافا، أكسو وجهى بطبقة من الجمود، وأتجاهل وجودها، لن أتبادل معها الحديث ولا النظرات.. هذا هو الرد الوحيد للخروج من هذه الورطة!!

وفى المنزل جلست والكآبة تخيم على قلبى، وكانت والدة كوثر تتحين الفرص لتبسم فى وجهى، ووالد كوثر يرسل عبارات الترحيب بلا حساب. أما شقيقة كوثر الصغرى «نوال» فقد أخذت تروح هنا وهناك بمرح، وفجأة رمقتنى وقال ضاحكة :

– أرجو أن يسرك طعامنا يا كمال.. لقد صنعته كوثر بنفسها.. رفضت أن أضع يدى فيه.. وهى تريد أن تسمع رأيك فيها كست بيت !

الأسرة طيبة، تحاول أن تزيل بقايا الارتباك من نفسى.. تخصنى بالعطف والحب كأنى فتاها الوحيد المدلل ، لكن كوثر وحدها هى التى تهمنى ، هى التى سأرتبط بها مدى الحياة، هى التى ستجعل من حياتى قصة جميلة.. أو مأساة مروعة!!

ودخلت كوثر مرفوعة الرأس، عابسة الوجه، كأنها قادمة لتوها من مأتم، وجلست صامتة كأنها بكماء ، والعياذ بالله. هل تحب أحدا غيرى، هل هى شاذة؟! وإذا لم تكن هذا أو ذاك فلماذا تجلس والخجل يكاد يقتلها؟!

واهتز والدها ، وهو شيخ هرم نحيل أنهك الهرم قواه، وحفظت عيناه شرارة الحياة، ولمس بيد مرتجفة طاقيته الحريرية الخضراء التى كانت تغطى صلعته اللامعة فى ارتباك وتنحنح ونظر لكوثر، ثم حدق فى، وقال وهو يصافحنى بصوت واهن أجش :

– إن كوثر يا ولدى فتاة مرحة، ولكنها ترتبك فى حضرة الغرباء، وأرجو – يا ولدى – أن تخرجها عن هذه العادة المرذولة التى أصبحت لا تتفق مع روح العصر!!

وضحك الشيخ ضحكة قصيرة وهو يرمقنى بقلق، فلم أجبه، ورحت أتأمل صورته الشابة المعلقة على الحائط لأدارى ما كنت أشعر به من حنق، فارتفع المسكين قليلا عن كرسيه، وألقى على كوثر نظرة حائرة مبهمة، وعلت وجهه الكآبة، فقد بقيت كوثر مطرقة كأنما قد أصرت على عدم النطق!!

وأقبلت الأم، وقالت ضاحكة:

– أرجو أن تخرج كوثر عن عادتها، إنها تميل إلى العزلة ، ليس بها عيب وفى الحق .و.و..

ولم تستطع الأم أن تواصل كلامها وهى ترى كوثر مطرقة شاحبة تكاد تغوص فى المقعد، وضحكت الأم ضحكة قصيرة وخرجت مهرولة كاسفة البال. ثم سادت فترة سكون، كان فى خلالها الشيخ يسلط على باستمرار نظرة تدل على مدى ما يعتمل في نفسه من الأسف لجمود ابنته غير المتوقع، وأخيرا بدا له فجأة أنه وجد موضوعاً للحديث يبدد ذلك الصمت، فقال بصوت عميق مبهم :

– اؤكد لك أن كوثر لطيفة، ولكنها خجولة جدا ، وأرجو أن يزول هذا الخجل في وقت قريب!!

وتشجعت «نوال» وقالت على الإثر وهى تبسم فى وجهى:

– لماذا لا تخرجان فى نزهة خلوية تمحو هذا التكلف الذي أراه في غير موضعه ؟!

قالت ذلك وضحكت عاليا ، وفى الحق أن نوال أشاعت جوا من المرح، وتمنيت فى قرارة النفس لو أنها هى التى كانت زوجة لى بدلا من هذه البكماء !!

ولكى أخرجها عن دائرة الصمت، حبذت الخروج فى تحفظ،

فى حين أن والدها الشيخ كان يعيرنى أذنا صاغية، إذ كنت أرى رأسه يرتفع شيئا فشيئا ، وأرى قبسا يضئ وجهه الضامر حتى يكاد يمحو منه تجاعيده، وقال :

- هذا صحيح.. وأعتقد لو أنكما خرجتما قبل عقد القرآن لما كان هذا حالكما!!

وضحك وهو يرمق كوثر التى أطرقت خجلى، ولكى أظهر لها أنى جدير بهذه المنحة المفاجئة رمقتها وقلت :

- ما رأيك يا كوثر ؟!

قلت ذلك وكدت أصيح فيها منفجرا .. انطقى أيتها البكماء!!

وبينما كنت أتوقع منها الموافقة وأن هذه الدعوة تكسبنى أكبر قسط من اهتمامها، رأيت دهشا أعراض الملل والضجر ترتسم على جبينها، فتبينت عندئذ أنى سئ الحظ مع هذه الفتاة!

وأخيرا لمعت فى ذهنى حيلة جهنمية لا تليق فى مثل هذا المجلس ، ولكن المضطر يركب الصعب من الأمور كما يقول المثل، فلماذا لا أنتهز هذه الفرصة.. فرصة إعراضها عنى، وأتمسك بمسألة الخروج معها؟

وفى الحق وجدت أن هذه الفكرة وجيهة جدا، لأسبر غورها وأقف على حقيقة مشاعرها، فإن قبلت كان بها ونعمت، وإن

رفضت فليس ثمة مايحول بينى وبين فصم القرآن فى مستهله سألقى عليها بالكلمة الفاصلة عندئذ وأنا مرتاح الضمير..!!

وأرسلت بصرى خلسة إلى كوثر، فوجدتها تفرك راحتيها بعصبية، كأنها تبذل مجهودا فوق طاقتها لتجلس معى، أو كأنها تستهجن هذه الجلسة العائلية التى يبدو أنها قد أجبرت عليها !

وأخيرا، رفعت رأسها ورمقتنى، وخيل إلى أنها ستعتذر، وتنصرف، ولكنها قالت فى تؤدة وبلهجة لا تشجع اطلاقا علي الحرص عليها كزوجة المستقبل :

– أعتقد أن خروج الفتاة مع الشاب منفردة قبل الزفاف.. ليس من الأمور المستحبة إطلاقا!!

وكدت أصيح محتجا : عن أى فتاة وأى شاب تتحدثين يا كوثر ؟!

وفى هذه اللحظة ظهرت والدة كوثر على الباب، واختفت الابتسامة من وجه والدها الشيخ وهو يرمق غضبى المفاجئ، وراح يتبادل النظر مع زوجته وابنته نوال فى حيرة كأنه يقول لهما «أنظروا.. إن هذه الفتاة خلقت من جماد.. ولن تصلح كزوجة إطلاقا!!»

وقالت والدة كوثر على الفور:

– أنا أحبذ خروجكما غدا وقت الأصيل فى نزهة خلوية ،أضيف إليها سهرة فى مسرح البالون تجمعنا.. فما رأيك يا كوثر؟!

قالت ذلك وحدجت كوثر بنظرة تحمل ألف معنى ، أو كأنها تقول : هذه هى فرصتك الأخيرة حتى لا يخرج خطيبك عن طوره ويلقى بالكلمة التى تندم عند سماعها كل فتاة!!

وحملقت نوال فى أختها كوثر دهشة، ثم رمقتنى وقالت بحماس :

– مسرح البالون؟! يالها من فكرة رائعة يا أمى؟! وقال والد كوثر فى اغتباط :

– هذه فكرة حسنة! ولو أن ذلك سيكون على حسابى لأننى كما ترون لا أستطيع أن أبرح المنزل!

وضحك الشيخ، وراحت الأعين كلها ترمق كوثر.

ودارت كوثر بعينيها، وتضرجت وجنتاها، وبدا عليها المرح فجأة، ومضت تتحدث كأنها كانت سجينة وانطلقت، وبعد لحظات أولتنى اهتماما وإعجابا أذهلانى، بل وحمدت للأقدار أن هيأت لى فتاة مثلها.. لماذا كان يبدو عليها الجمود؟ لماذا كانت صامتة طوال أسابيع؟ هذا ما لم استطع أن أجد له تفسيرا،

غير أننى تنبهت إلى أن كوثر على قدر كبير من الذكاء بعد أن انحلت عقدتها.

وطابت السهرة، وتغلغل حديث كوثر العذب حتى أعماق قلبى، وعندما خرجت، ضغطت أم كوثر على كفى وقالت بمرح :

- كن مترفقا بكوثر يا ولدى.. إنها لم تختلط باشخاص غرباء.. إنها فتاة طيبة فيها عطر الأنوثة وطهارتها.. وما شاهدته من غرابة تصرفاتها لم يكن فى حقيقة الأمر إلا قناعا زائفا يحجب فتاة نكية مرحة وطيبة.. و ... وأرجو لكما السعادة من قلبى !!

وترقرقت الدموع فى عينى، لبساطة الأم وطيبتها. وخرجت من المنزل وصورة كوثر تملأ قلبى، وهى التى كانت من لحظات فقط تبدو لى كالتمثال.. وبينما كنت فى الطريق. قفز أمامى سؤال كعلامة استفهام ضخمة : ترى هل جميع الفتيات هكذا ؟ لا أدرى !

# فتاة شريفة

كان والد «وفاء» يجلس فى شرفة قصره فوق مقعد من القماش وظلال الأشجار تهتز فوق رأسه العارى الأشيب ، ويده اليمنى تداعب هرة حمراء تقبع على ركبتيه في هدوء بينما وقفت ابنته وفاء أمامه منكسة الرأس ، شاحبة الوجه .. أما أنا فقد كنت أقف مستندا على باب الشرفة ، أترقب بلهفة فراغ الشيخ من إصدار قراره بشأن خاطب ابنته وفاء .. تلك التى كنت أحبها فى صمت .. وبلا أمل !!

وكان ذلك فى أواخر شهر مارس ، والهواء قد بدأ يحمل تباشير الربيع ، وشذى الأزهار يعطر الأرجاء ، ولم يكن يوجد فى الشرفة سوى مائدة صغيرة من الأبنوس ، عليها كوب وعلبة وتبغ ، وقداحة مفضضة تلمع فى نور الشمس . وكانت وفاء ترتدى ثوبا بسيطا رمادى اللون ، ولاتضع من حلى الزينة غير عقد من اللؤلؤ يمتد فى بريق أخاذ حتى أسفل نحرها .

وترك الشيخ ابنته لحظات تائهة فى بيداء من الحدس

والتخمين ، وفجأة تعقد جبينه ، ورمق ابنته وقال في سخرية لم يستطع كتمانها :

ـ هل يمكن أن تقولى لى بأى شىء أنت معجبة بخطيبك ؟!

قال الشيخ ذلك وأزاح الهرة من فوق ركبتيه بحنق ، بينما تضرجت وجنتا وفاء وقالت وكأنها تبكى :

ـ أنا لست معجبة به فى شىء ، ولو شئت الدقة فان صورته لاتعلق بذاكرتى البتة ! ولكنك قبلته خطيبا لى ووعدته بالانتظار .. أنت الذى وعدت ! ولا أحب لك ان تخلف الوعد . و.و ..

* * *

وارتج على وفاء ، ورمقها الشيخ رمقة سريعة ، وانثنى نحو السياج الحديدى ، وأخذ نفسا طويلا كأنه ينعم بهواء الصبح العليل ، وفجأة استدار نحو ابنته وحدق فيها وقد فاض به الغيظ، وقال :

ـ تمام !! لقد عرف الوغد كيف ينتزع منى مثل هذا الوعد حقا! ولكن المسألة ليست مسألة ألفاظ تتردد دون أن تحمل أى معنى . إن ذاكرتى قوية ! وقد صرح لى بأنه مسافر الى الاسكندرية ليعد منزل الزوجية ، ووعد أيضا أنه بمجرد أن يتم ذلك سيعود فى الحال ، وطلب مهلة لذلك شهرين .. ولكنه لم يعد

، لا بعد شهرين .. ولا بعد .. عامين !!

وأشعل الشيخ لفافة أخذ منها نفسا زفره فى ضيق ، وعاد يقول في غضب وجسمه كله يهتز :

- لا . لا . ان احتقار الفتاة الى هذا الحد ، واهمال شأنها على هذا النحو ، مظهر يدل على عدم الرغبة فيها .. والانصراف عنها !!

ولوى الشيخ رأسه نحوى ، وأضاف مستشهدا بى :

- أليس كذلك يا رأفت ؟ !!

وفي قفزة ، أو قفزتين .. لا أدرى !! كنت أقف أمام الشيخ في منتصف الشرفة ، (وفركت) يدى فى حبور وغمغمت :

- أجل ، ياسيدى .. ان الأمر لكذلك حقا !! ان كل ذلك حق ورب الكعبة !!

وحدج الشيخ ابنته بنظرة ساطعة نافذة وقال فى تشف :

- أسمعت يا وفاء ؟! اننى لأعرف أن خطيبك وغد .. مستهتر .. .. أفاك . أجل . أجل .. فإن صديقا مخلصا لى أحاطنى علما بأنه وغد !! وها أنذا ، أبوك ، الهرم ، الذى لا يزال بالرغم من ذلك رجل علم وفكر .. يجد نفسه مضطرا لأن يكشف لابنته عن




كل شيء . ومن الطبيعي أنه ليس من حق الاولاد وضع نصح والديهم موضع الريب !! فقومي ، يا ابنتي .. علام تنتظرينه بعد أن كشف عن نفسه ، بإهماله ، الغطاء ؟!!

واهتزت وفاء في وقفتها كمريض يترنح ، ورمقتني وتضرجت وجنتاها ، وتمتمت بصوت مختنق :

- آه يا أبي العزيز ! لكم كنت أفضل أن ترجيء الحديث حول هذا الموضوع الى فرصة أنسب ! ولكن مادمت قد سحبت القناع وأصبح الأمر على هذه الدرجة من العلانية ! فان ابنتك التاعسة لا تجد مفرا، من أن تقول انها ترى في النكوص عن العهد خدشا للاحترام ، وفي التحلل من الارتباط ، هدما للاخلاق!!

وضرب الشيخ زوايا المقعد بقبضة يده وخيل لي أنه سينهض ويلطم ابنته ، ولكنه قال في حماس : تمام ! تمام ! هذا عين الحق !! ومن يقل غير ذلك فهو مأفون !! ولكن سلوك خطيبك قتل هذا المبدأ القويم ، وفي الواقع ، يا ابنتي ، أنا لست مطمئنا الي مسلك خطيبك من أول يوم ، فقد لمحت الاستهتار كله يتجمع في عينيه عندما ضيقت عليه الخناق لتحديد موعد لعقد القران ، وكنت وشيكا على رفض طلبه في

نفس اللحظة ، ولكن أمك .. آه يا ابنتى .. أجل ، أجل . أمك التقية السليمة النية زكته لى ، منساقة فى ذلك وراء سيدة تعرفها من زمن ، ولكن .. تلاعبه بنا ، يا ابنتي ، أمر لم يعد يلائم كرامتى . حتي أمك نفسها أصبحت تشاطرنى هذا الرأى بعد أن نحت جانبا كل ما احتشد في رأسها من تقاة !! وأنت يابنتى لست الا فتاة عديمة التجربة كأمك !!

واهتزت وفاء كأنها تجرعت كمية مركزة من أقوى الخمر ، وشحب لونها وقالت فى حشرجة :

–آه يا أبى العزيز ! لقد لمست وترا حساسا فى النفس !! وليت ابنتك تستطيع أن تحنث فى الوعد بلا وخز الضمير .. !! أجل ، يا أبى .. فان تمسكى بالعهد ! انما هو من صنعك أنت ، ولست بمستطيع أن تلومنى على ذلك !! ولكن ، ان طاعتك هى أول واجباتى ، فهل تجيب لابنتك الكليمة القلب مطلبا ؟!!

ويظهر أن الجملة الأخيرة بدت للشيخ غامضة المعنى ، وكأنما خشى أن يقع فى شرك ، فقال بحذر :

ـ طبعا . طبعا . ان طلباتك كلها مجابة بشرط أن تكون معقولة .. فما هو ياترى هذا المطلب !!

ـ رسالة لخطيبى حمدى .. رسالة منى .. حتى أقتنع بأننى

منحته فرصة يبرر بها مسلكه !!

وحدج الشيخ ابنته مليا ، وغاص في المقعد ، وصوب عينيه نحو الأرض ، وتعقد جبينه لحظة ، ولم يلبث قليلا حتى فرك يديه في اغتباط ، وتمتم :

ـ ان ذلك حكمة منك وأصالة رأى !! هيا اكتبى الرسالة واعهدى لرأفت باسقاطها في صندوق البريد !!

وكفراشة هاربة من الشرنقة ، تسللت وفاء الى غرفتها ، وبقى الشيخ ينصت لوقع أقدامها حتى تلاشت ، ثم حدق في بوجه مكفهر ، وأخذت أسنانه تصطك كرجل عراه الزمهرير ، وأمرنى في لهجة متقطعة باسقاط الرسالة والعودة سريعا وهو يكاد ينشق غيظا وغضبا : ياللشيخ من ثعلب عجوز !!

ومددت له يدى بالدفاتر ليطلع على الحسابات ، بيد أنه نهض فجأة وقال بتأفف :

ـ لا عمل الآن . لا عمل الآن ! ومن الجوهرى أن نتفاهم على ذلك في المساء .. فإلى المساء !!

ومشيت الى غرفة وفاء وأنا شديد الدهش من حرصها على وعد شاب يعاملها بمثل هذا الاسفاف .. واهدار كل التقاليد والقيم والمثل . وبرغم شعور البرم الذى أحسسته من أداء هذه

المهمة ، الا أن حبى لوفاء جعلنى أتناسى هذا الموقف المحتقر .. لشخصى !! وعند باب غرفة وفاء صدرت من حلقى سعلة عالية ، وجاءنى صوتها الساحر بأنها فرغت من كتابة رسالتها ، فأسندت ظهرى الي الحائط ، وجرفتنى الأفكار ، وتزايد شعورى بالألم والمهانة ، بل أحسست أن قلبي تحت أقدام قوية جبارة سحقته بلا رأفة !!

والواقع ان وفاء ، فى الأيام الأخيرة ، كانت قد أصبحت أكثر من صديقة لى ، ومن الأسرار التي أفضت بها الى ، أنها لا تكن فى نفسها شيئا من العطف لخطيبها ، بل إنها تكره أن تراه ، ولكنها فقط تحترم وعدها ! وكانت كثيرا ما تؤكد هذا المعنى، وهي تقول في بسمة حزينة «ان الانسان الذى يخل بالعهد يجب ان يستأصل من المجتمع الانسانى ، يجب ان يباد كحشرة ضارة مؤذية !!» .

وبعد أن تجول بنظرات جافة حزينة هنا وهناك ، تتنهد ، وتضيف وشعاع من نور سماوى يضىء جبينها « ولست أظن يا رأفت أنك تريد لى أن أخل بالعهد بالدرجة التي أرى فيها نفسى انسانة يجب ان تستأصل من المجتمع ، أو ان أصبح فى نظر نفسى أما كنوبا أمام أطفالها الذين ينامون فى المهد !» .

ووفاء علي جانب كبير من نقاء السريرة فعلا ، تعيش فى قصر والدها حياة مثالية ، تسودها نزعة فلسفية ، وتشغل وقت فراغها بقراءة الكتب هربا من الضيق والملل ، وتقول : «ان القراءة كالفن ، كلاهما يسمو بالروح ويوسع الافق ، ويفتح أمام الانسان أفاقا من العلم والمعرفة ، ويجعله أقدر من غيره على فهم الحياة » .

وعندما تسلمت الرسالة التى كتبتها وفاء لخطيبها الأرعن ، انتابتنى هزة عنيفة من لمسة يدها البضة ، ومن صوتها الدافيء الساحر وهى تحذرني من التأخير لتلحق بقطار الليل ، حتي اذا تحررت من عهده ، لا يكون فى مسلكها ما يشين ، ويمكن لها أن تتخلص من تأنيب الضمير ، وما تقاسيه من هجره ... وظلمه!

وحدجتنى بنظرة تفيض بالدمع والسحر واستدارت فى رشاقة وظرف الى غرفتها وهناك انكفأت فوق حافة النافذة، ولمحت جسمها يهتز ، ونشيجها يتعالى ، فتسمرت فى مكانى ، ورحت أحدق فيها باشفاق ، ودفعتنى الحيرة والارتباك أكثر مما دفعنى الفضول الى عدم التحرك . وتمثل لى وجه خطيبها «النذل» وهو يسخر منها ، غير مبال بما قد يسببه لها من ألم

النفس ومن سوء السمعة ، فكورت يدى ولوحت بها فى الهواء وبنفسى رغبة شديدة في تحطيم صاحب ذلك الوجه أو سحقه تحت قدمى كأحقر حشرة !

وأحست وفاء بوجودى . ويبدو أنها ظنت أنى أنظر اليها خلسة ، اذ استدارت نحوى في حركة مفاجئة . وراحت تتأملنى بنظرات حادة مكتئبة ثم اقتربت منى وقد أمسكت برأسها بين يديها وصرخت:

– رأفت! لقد كنت أشعر نحوك بعاطفة صداقة ، ولست بعد اليوم أشعر بمثل هذا العطف ، ويؤلمنى أن أراك مرة ثانية وأنت على مثل هذا المسلك !

أدركت في الحال أن وفاء قد أساءت بى الظن ، فترقرقت الدموع فى عينى ، وخفضت راسى شعوراً بالاستخذاء ، والتوت زاوية فمى فى هزة عصبية .. فأنا لا أتقهقر أمام أشد الأشياء هولا ، ولكن كان يفزعنى سوء الظن ! . اذ ليس كمثله شئ يحيل قلب صاحبه الى أتون لا يخمد !

ولاحظت وفاء مالاح على وجهى من بوادر الألم ، فاقتربت منى ودفعتنى برفق ، وقالت فى كبرياء :

– لقد صفحت عنك! اذهب. ولكن إياك أن تفعلها مرة أخرى!

وهرولت الى مكتب البريد وأنا أحس برسالة وفاء كقطعة من جمر تتلظى بين أناملى ، وأمام الصندوق ساورتنى فكرة خبيثة .. لماذا أسقط هذه الرسالة؟ بل لماذا لا أمزقها ؟! ووثبت الرغبة المروعة الى رأسى ، مفاجئة مذهلة ، وخفق قلبى بشدة ، وهتفت لنفسى بهدوء الأنفاس : ان وفاء لن تكتشف ذلك ، ولو أن والدها علم بمافعلت ، لتقبل ذلك، فى ارتياح كبير ، فانا من أعلم الناس بما يضمر ذلك الشيخ لخاطب ابنته من سوء النية !

ومضت لحظة ، أو عام ، لا أدرى ، وأنا واقف متواريا فى ظلال مبنى البريد ، مسنداً ظهرى الي الصندوق ، كأنني اخفيه عن عينى ! أو من لذعة الضمير التى أحسستها كسياط تلهب رأسى !

وفى اللحظة التى استدرت فيها لأعود الى القصر ، اقترب منى موزع البريد ، وسلمنى رسالة تبينت أنها من خطيب وفاء لوالدها . يا للشيطان ! هتفت بذلك لنفسى ، وعدت أترنح فى الطريق الى القصر وأنا أستشعر فى نفسى جوى يحرق صدرى ، فها هو خاطب وفاء قد تيقظ أخيرا بعد أن ظننته قد تنحى عن طريقى ! . ولكن .. من أنا حتى أجرؤ على طلب يد وفاء ؟!

شعرت بذلك السؤال يهبط فوق رأسى كلسعة السوط ، فأنا

أعمل وكيلا لمكتب والد وفاء .. أنام وأعمل فى غرفة ضيقة ، منخفضة السقف ، غاصة بالرفوف والكتب والسجلات ، ما من مرة تنبهت الى نفسى فيها الا وشعرت بالاكتئاب يغزو قلبى كجيش مظفر !

غرفة موحشة فى النهار ، مظلمة كئيبة ، أما فى الليل فلا يؤنس وحدتي الا تواثب الجرذان بين جدرنها الرخوة المعتمة وقرضها لجوانب الأرفف ، وفى الحق لست جديراً بمثل هذا العمل ، ولكن والد وفاء عطف على ، وألحقنى بخدمته بعد أن توفى أبى ، ولم يبق لى فى الحياة من أمل أواصل به تعليمى أو أطعم أمى التى ترملت وهى فى ريق الشباب ، وآثرت حياة الترمل ، بما فيها من شظف على زوج لها قد يشقينى في قابل الأيام!

صفعنى واقع حياتى المر !! اسودت معالم الطريق أمامى ، وعند القصر وثبت الى رأسي فكرة شيطانى : لماذا لاأفض خطاب «حمدى» وألقى نظرة على محتواه؟! وتقبضت أصابعى على الخطاب فى فزعة من يقظة الضمير ، ولكن الرغبة الخبيثة كانت قد سيطرت على ، فأدنيته من فمي لأبلل أطرافه وأفتحه بلا أثر يذكر ، وفجاة دوى فى أذنى صوت أحسسته كقرع الطبل :

هكذا الأمانة والا فلا !!

هبطت يدى الى جانبى في تخاذل . مشيت فى ممر الحديقة والزهر يتراقص امام بصرى كدم مسفوح لانسان فاقد الشرف والذمة والضمير !! .. وردتنى الى عالم الوجود صيحة من وفاء ، عدت اليها .. ناولتها الخطاب . فتحته فى شرود . أخذت تتصفحه بعينين غير مكترثتين . ركزت بصرى .. بل حواسى كلها ، في دراسة ما يطرأ على وجهها من مختلف الانفعالات ، وأخيرا هزت رأسها ورمقتنى وقالت في ارتياح :

– حمدا لله . لقد عدل حمدي عن خطبته ، وقد أصبحت الآن حرة من قيد وعده .. الثقيل !

شعرت بالدنيا كلها تضحك في عينى قلت وأنا أتطلع اليها لأول مرة فى أمل :

– أليس فى هذا ما يحزنك حقا .. ياوفاء ؟!

رمقتنى وضغطت أسنانها الناصعة فوق شفتها السفلي ثم هزت رأسها وابتسمت في غموض وقالت : إنك لم تصبح رجلا يحس مسئولية الكلمة يا رافت ! الشئ الوحيد الذي يؤلم نفسى هو الاخلال بالعهد !! واضطرمت الكلمات فوق شفتيها ورمقتنى وأطرقت ثم رفعت يديها وغطت وجنتيها الملتهبتين وجرت الى



الداخل وشعرها الأسود يقفز فوق جبينها البديع ، وهتفت لنفسى في نشوة :

وحق الأنبياء والقديسين والشهداء .. إن وفاء .. تحبنى !!

فركت يدى فى غبطة . همست لنفسى فى مرح :

– عال! . لم تبق الا كلمة تقال .. وتصبح وفاء خطيبة لى !

وفى المساء لذت بغرفة المكتب ، أراجع أعمالى للمرة العاشرة بعد الألف ، وطيف وفاء يتراقص أمام بصرى كملاك . وتمثلت وجهها المستدير الطيب . فى حلم لذيذ شائق ، لماذا لا أثير مسألة حبى لوالدها فى هذه الليلة ؟! وتمتمت لنفسى بلهجة محزنة مضحكة معا : أعتقد أن هذا الطلب قد أصبح الآن فى منتهى الاعتدال !

وسمعت وفاء تنادى على، وفى اللحظات التالية كانت تحدجنى مليا وقد استندت بأناملها البيضة فوق حافة المكتب:

ـ إن أبى ينتظرك منذ أكثر من ساعة فى حجرة الجلوس لتقدم له دفاترك العتيقة!

ومشيت خطوتين، ثم استدارت نحوى فجأة وقالت فى تساؤل:

ـ رأفت.. لماذا يبدو عليك الاضطراب !؟

وتأملتنى برهة هزت بعدها رأسها وانطلقت إلى الخارج كالحلم. وتأبطت الدفاتر وخرجت إلى والد وفاء وطلب يد كريمته يتلاعب فوق شفتى كسفينة تمخر مياه محيط فى رسوخ. وقدمت الدفاتر له ولكنه أشار إلى مقعد بجانبه وتمتم:

- اجلس. لقد أصبحت أثق فيك ولك أن تتصرف كما تشاء دون الرجوع إلى بعد أن تيقنت من صدقك!

وطاف بخاطرى أكثر من خاطر مبهج، وتمتمت لنفسى وأنا أتظاهر بمراجعة الدفاتر: انتهى الاشكال!

وأقبلت وفاء وقدمها الصغيرة تضرب الأرض من تحت طيات ثوبها الأزرق، وجلست جنب والدها ولم أستطع أن أحول بصرى عنها، ورمقتنى بغتة ورمشت بأهدابها الطويلة، وقالت بصوت ساحر أخاذ:

- ستتناول طعام العشاء معنا يارأفت. وبعد ذلك هناك ما يود أبى أن يقوله لك !

قالت ذلك وأدارت رأسها نحو أبيها وغمزت له بعينها، ثم حدجتنى بنظرة من عينيها الساطعتين ، فخفق قلبى بشدة ، وتمتمت فى وقار مصطنع:

- شكرا لك يا وفاء، ولكنى مضطر لمراجعة الدفاتر و..

الاستذكار للحقوق.. و .. و ..

وتوقفت الكلمات في حلقي ورحت أحدق فيها مبهوتا مبهورا، بينما صاح والدها يقول في غبطة:

- أنت اليوم تستحق التكريم لأنك حملت لابنتي بشرى الخلاص من شخص كنت أستثقل ظله، ثم انك قد صرت كفرد من أسرتنا.. فعلام التكلف يابني ؟!

وللمرة الثالثة، أو الرابعة، لا أدري، فركت يدي في حبور، وهتفت لنفسي في زهو:

عال! لم تبق إلا إجراءات شكلية وتصبح وفاء شريكة لحياتي!

وأطلق الشيخ ضحكة مرحة وهو يرمق ابنته اعجابا، وفجأة زوت وفاء ما بين حاجبيها وأطرقت وقالت باكتئاب:

- ليتني صدعت بأمرك يا أبي فلم أرسل خطابا لذلك الوغد!

وشعرت بنشوة هزتني من الأعماق وأنا أسمع وفاء تعترف بأن خطيبها السابق لم يكن إلا وغدا، وأخرجت الرسالة من جيبي وقدمتها لها وقلت بانشراح:

- لا تحملي هما! ها هي!

نطقت الكلمة الأخيرة بصوت خلته كرنين طبل في موقع

حربى! وقفزت وفاء من فوق المقعد منتشية، ومزقت الرسالة قطعا صغيرة ونثرتها فى الحديقة وهرولت إلى الخارج فى رشاقة الغزال.

ورمقت والدها وهممت أن أصارحه بما فى قلبى ولكن وفاء عادت مسرعة وقالت بمرح:

ـ رأفت. لا تنس أن ترسل فى طلب أمك! فقد طلبت من أبى أن تعمل أمك هنا. إنها لن تتعب! وسنفرد لها غرفة خاصة لتكون قريبة منك!

ورمقنى والد وفاء وهز رأسه موافقا وفوق شفتيه بسمة المانح المتفضل، وقال:

ـ ان مرتبك ضئيل وقد أردت أن أسدى اليك خدمة فى مقابل جهودك المخلصة!

أحسست بقوله كنصل سكين حاد يغوص فى عنقى حتى غايته. تجمدت أناملى فوق حافة المقعد. تضاربت الأضواء فى عينى كالوهج. شعرت كأننى أهوى من حالق وأسقط وسط أتون من لهب. وقفت وقلت بصوت المختنق:

ـ ان أمى لن تعمل أبدا. أبدا. لا فى هذا البيت ولا فى سواه.. وأنا على قيد الحياة!

غادرت حجرة الجلوس كانسان يفر من لهب الحريق فى آخر لحظة. انهمرت فوق مقعدى الأجرب كتمثال. مضت فترة وأنا أنصت لخرفشة الجرذان فى الأوراق القديمة:هنا مكانك! هتفت بذلك وأنا فى غمرة من حمى اليأس، ورأيت والد وفاء يدخل على بخطوات مسرعة كشبح مزعج ولمس كتفى بيمناه وتمتم وهو يحدق فى:

ـ ما هذا ياولدى ؟! إن أمامك مرحلة طويلة قبل أن تشق لنفسك طريقا بديعا فى الحياة.

أنا أعلم تماما مدى ما ينطوى عليه قلبك، الطيب، من حب.. لابنتى.. إنها فتاة طاهرة نقية ولو أنها متطرفة فى التمسك بالشرف. ولهذا السبب أراها ناشفة الرأس. ولا أريد أن أثير فى نفسها مر الألم بأن أقدم لها فتى جديدا على أطلال فتاها القديم!

و.. وذهلت، وبدرت من حلقى صيحة مختنقة: أحقا.. ! .. ! ..

وهز الشيخ رأسه وتمتم ووجهه المتغضن يضىء بنور الصدق:

ـ أجل.. ياولدى.. فأنا أعرف كل شيء .. كل شيء!.

يا للثعلب العجوز!

ولأول مرة، أشعر بغرفة البدروم تتسع وتتسع كأنها أجمل قصر فى الدنيا!

# القصة الجديدة

كنت أجلس فى غرفة مكتبى المطلة على النيل فى المساء، وكان شهر أبريل قد كسا الاشجار بأوراق ناعمة، وأزهار نضرة. وكانت زوجتى «بدرية» تجلس إلى جانبى ووجهها يسفر عن غيظ مكتوم لا أدرى مبعثه، وخامرنى احساس غامض بأننى اجتاز مرحلة دقيقة، من تلك المراحل التى ترى الزوجة فيها أن «الأدب» هو «الضرة» التى تشاركها فى عطف الزوج، وأننى سأعيش فى دوامة من الغيرة الحمقاء، والمشاجرات التى لا يعلم إلا الله وحده كيف يمكن أن تكون نهايتها!

كانت غرفة المكتب مطلية بلون أبيض، عارية من الاثاث، اللهم إلا من مكتبة صغيرة غاصة بعدد وافر من مؤلفاتى التى نشرت ولاقت رواجا كبيرا لدى كثير من القراء.. ومن صورتين بديعتين معلقتين على الجدار، إحداهما لفينوس، والأخرى لنفرتيتى. وثلاثة مقاعد مختلفة لا تناسب فيها ولا اتساق، أحدها

من الخيزران، والثانى من القش، وثالث من القماش، أما المكتب نفسه، فلم يكن عليه سوى الأوراق البيضاء، ومحبرة صغيرة، وتمثال من المرمر لأوزوريس!

وقبل أن أشرع فى كتابة القصة التى طلبها منى صاحب مجلة «الأهداف» للعدد القادم، رمقت زوجتى خلسة، فراعنى أن رأيتها ذابلة الاجفان، وتركت زوجتى تعيش مع فيض خواطرها، وبدأت فى كتابة القصة، ولكن ما كدت أفرغ من كتابة صفحة وأضعها فى جانب المكتب، حتى أخذتها زوجتى بتلهف واضح، وجرت عيناها على السطور..

ثم أخذت ترمقنى خلسة وهى تتظاهر بالقراءة، وأناملها تغوص فى شعرهاالأسود بعصبية حتى لقد توهمت أنها توشك أن تنفجر فى ثورة عارمة، وعندئذ فقط أدركت أن ذلك الهدوء لم يكن إلا كالهدوء الذى يسبق العواصف، وأنها تكتم ثورة عنيفة تكاد تمزق فؤادها تمزيقا.

وعندما وجدت بدرية أننى قد توقفت، أطبقت الكتاب وألقت به فوق المكتب فى سأم، وقالت بصوت تبينت فيه رنة الغضب والسخرية معا:

ـ هل فرغت من كتابة قصتك الجديدة أيها الأديب.. الألمعى؟!

كانت السخرية من الوضوح بحيث جعلتني أهتز بين جناحي المقعد، ومع ذلك أجبت في رقة حتى لا أثيرها.

- لا يا بدرية، فلأول مرة في حياتي الأدبية أرى النهاية مستعصية على قلمي.

وارتسمت على وجه زوجتي ابتسامة ساخرة، يكذبها إغروراق عينها بالدمع، وقالت في برود:

- إذن لا مناص من السهر حتى تفرغ منها.. وأقرأها!

وتوهمت أن زوجتي تأثرت بطريقتي البارعة في سرد الوقائع التي هيأتها لسقوط بطلة القصة بين وحش آدمي، ورسوخ قلمي في وصف مشاعر من تفقد أسمى ما تمتلك في لحظة طيش، وساعد على تكوين هذا الخاطر، الدموع التي أخذت تمسحها خفية، وأردت أن أتبين صدق ذلك الظن، فقلت وأنا أفرك يدي سرورا:

- ولماذا كل هذا الاهتمام؟!

انتظرت الجواب وملء نفسي احساس بالفرح والغبطة، ولكنها أجابت في سخرية أحسست بها ترعش قلبي وتدميه.

- لأعرف كم مراهقا عبثت بهم، ودمرت أخلاقهم، في قصتك. اللا أخلاقية الجديدة!!

شعرت كأن لطمة قوية تهبط فوق رأسى كالبرق الخاطف، وبالدماء تجمد فى عروقى، من رأيها القاسى المفاجىء ورمقتها وقلت بصوت أجوف كأنه صادر من كهف:

- ما هذا الذى تقولين؟!

أجابت بصوت يعرب عن وافر الألم، وهى جامدة الحركة مطبقة العينين:

- كنت أود أن أخفى عليك شدة تقززى من كتابتك عن الجنس، ووصفك الإباحى لمشاعر المراهقة، ولكن إصرارك على هذا المنهج الوعر، واهتمامك البالغ بوصف أدق أحساسات ومشاعر الجنس، أحالت هذا التقزز إلى شىء آخر قد.. يهولك سماعه!!

قالت ذلك بصوت بدأ قويا، ثم دب فيه الوهن، حتى لقد غدا كالحشرجة، وشعرت كأننى أهوى إلى بئر سحيقة الغور، وبلعت ريقى بصوت مسموع، وقلت كالمأخوذ:

- أنت تنسين حقيقة هامة، وهى أننى لم أكتب عن الجنس، إلا لأن هذه الكتابة هى المطلوبة منى لصاحب المجلة!

وشعرت فى الحال بفداحة ما تفوهت به من خطأ شنيع، ولكن كان قد سبق السيف العزل كما يقول المثل، بينما راحت

أنامل زوجتى تلف حول بعضها فى دورات عصبية سريعة، ثم حدجتنى بنظرة قاسية، وقالت فى سخرية مرة:

- يا لخيبة أملى فيك!. ألا تعلم أن قولك هذا معناه أنك تخنع لصاحب المجلة، لدرجة أنه لو أصدر إليك أمرا بأن تقذف بنفسك في مياه محيط، فانك ستفعل ذلك كأنك آلة صماء، مجردة من الشعور ومن الإرادة ومن كل إحساس بالخطر.. بل ومن الكرامة؟!!

كانت الليلة عطرة ساحرة، نسماتها تهب من الشرفة ندية منعشة، توحى للأديب بأرق المشاعر وأنبل الأحاسيس، وكانت بدرية غير طبيعية، ونهاية القصة لا تزال تسبح فى رأسى كالضباب، ولذا كتمت الثورة التى أحسست بها تجتاح فكرى اجتياحا، وقلت نافد الصبر لأنهى النقاش حول هذا الموضوع بأسرع ما يمكن:

- بدرية. أنت تتدخلين فى أدق شئونى، ومع ذلك أحب أن أوضح لك أن الكتابة عن الجنس، أو هذا اللون من الأدب، انما يرضى الكثير من الناس بل إن آلافا من القراء ينتظرون مجلة «الأهداف» من أجل القصة التى تنكرين أنت على كتابتها و.. وتتقززين منها!

ولكن بدرية أجابت فى إصرار عنيد:

ـ من أجل هذا السبب نفسه، أحب أن أصارحك أنك تسير في طريق مدمر لكيان وأخلاقيات جيل بأكمله، فأنت تستمد الوحي من تصورات خبيثة تجد لها صدى كبيرا فى جيل برىء!

أحسست بالاختناق، فتحت صدر القميص بأنامل متشنجة، أخذت نفسا طويلا وصرخت:

ـ يا ألطاف الله .. أإلى هذا الحد؟!

أجابت بسرعة لم أكن اتوقعها:

ـ بل وأكثر من ذلك، فقد أصبحت أشعر كأننى أعيش مع قاتل لأجيال!

أحسست بالحزن يضغط على صدرى، ولكننى تجلدت، قاومت فورة الغضب، وزوجتى ما زالت فى قمة ثورتها، وقلت بهدوء لأسبر غورها، ولأقنعها بعد ذلك بخطل ما ذهبت إليه من سخافة فى الرأى:

أجابت بعمق، وبصوت ثابت واضح النبرة:

ـ لك أن تسخر كما تشاء، ولكن ثق من أننى جادة كل الجد

فى وضع حد لكل هذه المهازل.

قالت ذلك وهبت واقفة، وأشارت إلى مكتبتى الغاصة بالقصص، وأردفت بصوت راعد:

ـ أترى هذه المؤلفات؟ إنها خطيئة مكدسة فوق بعضها البعض، وإن كنت أنت تعتبر هذه المؤلفات انتصارا لك، فأنا أعدها وصمة عار تلطخ جبينك، ثم .. ألا تشعر بأنك مثقل الضمير وأنت تضم تحت سقف بيت زوجية شريف.. هذه الانحلاليات؟!

رمقتها فى كمد. لم أستطع أن أتفوه بحرف. شلت تفكيرى المفاجأة، وعادت تقول بصوت قوى أحسسته كمطارق تتوالى ضرباتها فوق رأسى وتحطمه:

ـ لقد أدركت أنك تقدم على عمل شنيع، ومن أجل هذا أضمرت الانفصال عنك، عندما تأكدت أنك مصر على الاستمرار فى كتابة هذا اللون .. المقيت .. الذى تسميه أدبا..

شعرت بالمرئيات تتراقص أمام عينى، وقلت بصوت أحسسته يخرج من حلقى كالفحيح:

ـ بدرية. يجب أن تعلمى أن كاتب الجنس يؤمن بالخير فى الإنسان، يسبر غوره ويتعمق شخصيته وسلوكه، إنها محاولة

استكشاف تفيد ولا تضر، انها تتناول حياة المراهق المليئة بالحرمان والجفاف، وترسم له الطريق الأقوم، و..

ولكنها قاطعتنى محتدة:

- صه. إن بدرية أدركت ما لم تدركه أنت، ولقد صبرت كثيرا، كنت أعتقد أنك سترجع إلى جادة الرشد، وتعود كما كنت، الأديب الذى يكتب ليحقق هدفا نبيلا، ليثقف ويمتع الناس الأديب الذى ينير مسالك الحياة لمن ضل، ولكننى وجدتك تنحرف بأمانة القلم إلى شىء آخر يدمر القلوب والأرواح!

صرخت فى ذهول:

- بدرية . حاذرى ثورتى.

ولكنها مضت تقول وكأنها لم تسمعنى:

- لم تعد تهمنى ثورتك بعد أن قررت مصيرى لم أعد أهتم بك. دعنى. طلقنى!

أذهلتنى الكلمات . أدارت رأسى. فأجبت فى غضب وألم وقهر:

- لا أصدق أن بدرية. حبيبتى. بل زوجتى الوفية.. هى التى تقول ذلك، رباه.. رد إليها صوابها!

واستدارت إلى الشرفة، ولمحتها تمسح دمعة بطرف شملتها، ثم استدارت نحوى بسرعة غريبة، وعقدت ذراعيهاحول صدرها، وقالت بصوت واهن أجش:

- أتريد أن أقول لك ماذا يعنى هذا؟وأن أقول لك كل شيء؟

فابتلعت ريقى وقلت:

- أجل. أريد أن أسمع كل شيء، لأضع حدا لهذا الوضع.

وأطرقت وهى تقول فى أسى ومرارة:

- كنت أمشى على ضفاف النيل، أستروح النسمات، واذا بنبرات صوت على مقربة منى فى متنزه ، جعلنى أرتجف. وكان صوت رجل يتكلم مع سيدة، لعلها زوجته، أو خطيبته، أو خليلته، لا أدرى وكانت العبارة التى قالها بالحرف «إن هذا الكاتب وضيع، إنه يعمل على إفساد أخلاق الناس، بأسلوب وقح، وناعم ومثير». ونطق باسمك، وقذف مجلة فى مياه النهر، لمحت من غلافها أنها مجلة «الأهداف» العدد الأخير الذى كتبت فيه قصتك الجنسية. الفاضحة!!

أحسست بعرق بارد يغطى جبينى، مسحته بأصابع متشنجة. وتمتمت:

- هذه اهانة.. ستدفعين أنت ثمنها!





ورمقتها بنظرة ثاقبة، واحمر وجهها حتى حاكى لون الدم، وبعد هنيهة صار ناصع البياض كأنه دمية من الرخام الأبيض، ثم قالت في هدوء قاتل:

ـ ألم تطلب أنت أن تســــمع كل شيء؟! ومع ذلك لك أن تطمئن.. فلن أعيش معك بعد الليلة!

دارت بى الأرض، أحسست كأننى فى أرجوحة مسعورة ترتفع بى إلى عنان السماء ثم تهبط بى حتى أعماق الأرض، وتراقصت أمام عينى عشرات من آراء علماء الجنس، إنهم جميعا يؤكدون أن الغريزة الجنسية غريزة شريفة، وأنها أعمق وأسمى وأقوى الغرائز الانسانية ، وأن الكاتب يستطيع أن يعالج فوراتها الجنونية بلا إثارة تذكر ، فلماذا أعالج قصصى عن الجنس من زاوية الإثارة؟

ومضت برهة أحسست بعدها أن زوجتى مصيبة فى رأيها، وأننى اخترت لوناً من ألوان الأدب خطره مدمر إن لم أكتب كل حرف بحكمة.. وسمعت هاتفا قويا يدوى في أذنى: أمامك الحياة. أمامك الناس ومشكلاتهم. أمامك النبع الكبير.. فلماذا تغترف من بركة ضحلة آسنة؟!!

وأخفيت وجهى بين راحتى وتمتمت فى ندم:

- بدرية . أعتقد أنك لن تنسى حبنا و.. وعشرتنا الطويلة .. و .. و ..

وأحسست بلساني يجمد فى حلقى، ولمحت فجأة عينى بدرية تبهتان كأنما كانت تحتضر، وقالت بصوت تفشته بحة حنان:

- إن الشيب وخط رأسك، ومع ذلك فأنت ماض في تدمير أخلاقيات الناس.. لم أعد أحتمل، لم أعد أطيق أن أسمع سب زوجى.. الحبيب بأذنى!

قالت ذلك وانهارت فوق المقعد، وأخذت ترتجف، وشحب لونها شحوبا مروعا، فأسرعت نحوها ملهوفا، وقلت فى حنان بالغ:

- بدرية. حبيبتى. إنك لم تذكرى لى شيئا في هذا المعنى، وربما تركتينى أخطو فى طريق النجاح وأنا مغمض العينين، الشيء الوحيد الذى لاحظته هو أن تشجيعك لى لم يعد كما كان، فلم أسأل ، قلت لنفسى ربما فتر حبها لى لسبب لا أدريه. وسيعود أقوى مما كان، تركتك لتعودى وحدك، وإذا بى أكتشف.. يا للهول!!

وأطرقت بدرية لحظة، ثم رفعت إلى وجها صفا لونه، وقالت بصوت هادىء متزن:

ـ ثق يا حـمـدى أن حب بدرية لك لم يفـتـر أو يتـغـيـر، ولكن وصفك الدقيق للجنس، وما سمعته بأذني.. كل هذا جعلني أحس كأنني أعيش مع قاتل لأجيال، أجل يا حمدى.. فإن الكتابة عن الجنس أخطر على المجتمع من أفتك الجراثيم! أرجو أن تضع لجاما على لسانك، أن تنصب حارسا على شفتيك لئلا تكون كلماتك معولا لهدم سلام نفسك.

قالت كلماتها الأخيرة بوهن، وأخفت وجهها بين كفيها، وأحسست أن بدرية أيقظت في نفسي ضميرا هجع، وإحساساً ركد، ونفسا ركنت إلى أضواء المجد فلم تعد تفرق بين ما ينفع وما يضر.

و.. وأمسكت القصة الجديدة ومزقتها وألقيت بها في مياه النيل.. ثم استدرت نحو بدرية وحدجتها بنظرة تكاد تصرخ في طلب الغفران!!!

# أسرة طيبة

عندما فرغ من قراءة الرسالة التي وصلته من ابنة خالته «سلوى» كان الانفعال قد بلغ به مداه، فطواها بين كفيه، وعركها بأصابع متشنجة، وحدق في الفضاء، وقد استولى عليه شعور غريب من الذهول والانقباض.. كانسان سقط فجأة من علياء المجد ولاقى صنوف المصائب!!

فقد رفضت سلوى أن تقترن به لأنه «وحش» وكأنما أبت إلا أن تسدد إلى قلبه طعنة قوية قاتلة، فرددت هذه الكلمة في أكثر من موضع من رسالتها، ثم أعربت له بعد ذلك عن تمنياتها الطيبة بالتوفيق مع فتاة غيرها، قالت في نهاية رسالتها.. أعذرني يا كمال، فأنا لم أفكر في الزواج حتى الآن، ولا أريد أن أرتبط به، ومن الخير أن تبحث لك عن فتاة غيري.. أتمنى لك معها السعادة من قلبي!!

ومضت برهة أفاق بعدها كمال من ذهول المفاجأة، وأحس

بالرجفة تسرى إلى كل عروقه، واصفر وجهه حتى غدا أكثر شحوبا من وجوه الموتى، وسقطت الرسالة من بين أنامله فوق المكتب، وتندت عيناه بالدموع، وكلمة «وحش» تدق رأسه كالمطارق وتتراقص هياكل حروفها أمام عينيه.

لقد رفضت سلوى أن تقترن به لأنه وحش، قالت رأيها فيه بصراحة وقعت فى نفسه كصدمة الحجر.. ولكن.. ما هو ذنبه؟. انه لا يستطيع أن يغير أو يبدل من خلقته، ولو كان الأمر بيده حقا، لما قنع من جمال الطلعة بأقل من حسن يوسف، ولكن الله جلت قدرته هو الذى خلقه وسواه على هذا الشكل!

وبينما هو فى غمرة من الأحزان، تتطاير نظراته بين جدران ونوافذ المكتب، كمن يودع أعز أمانيه وأرق أحلامه، وثبت إلى ذهنه فجأة فكرة لم تدم سوى لمحة البرق.. فكرة الاقتران بجارته نجوى.. إنها فتاة لطيفة ورقيقة، شاهدها أكثر من مرة وهى تقف بمفردها أو مع أمها فى الشرفة، ولكنه لم يدرس أخلاقها، أو يفكر فيها، لأن عواطفه كلها كانت مع سلوى!!

وغادر كمال مكتبه، وأفكاره كلها تدور حول جارته، التى برزت بغتة فى سماء حياته كالنجم الساطع، وبددت فى لحظة كل ما ترسب فى قلبه من يأس، ولكن.. من أداره أن جارته تقبل

أن تقـتـرن به؟! أو ليس من الجـائز أن تنقلب الفـتـاة الهـادئة الخـاشعة إلى بركان يقذف الحمم عندما يتقدم إليها و.. و.. وشكله وحش؟!

ورسم الخيال لأعصابه المضطربة أنه تقدم لخطبة نجوى بالفعل، وأنها تقف شامخة معتزة بجمالها، ثم ترفض طلبه ونظراتها تسطع بقبس من التهكم، فانكمش على نفسه، وشعر بالأرض تميد من تحت قدميه، وأنه كحيوان أصابه سهم في الصميم، وانطلقت من حلقه زفرة حرى، وتمتم لنفسه بصوت أجش مختنق:

ـ يا للغباء!! إن هذا لم يدر بخلدي، وإذا كانت سلوى وهي من أقرب الناس إلي، رفضت أن تقترن بي لأني وحش.. فما بالك بفتاة غريبة!!

ودخل كمال المنزل، وهاتف القبول من جارته كزوج، ينعش قلبه، ويثلج فؤاده، واعتلى درج السلم وثبا، وخلع ملابسه، وتناول طعامه، وفتح نافذة مسكنه، ليدرس أخلاق جارته ولو عن كثب. وفوجيء برؤيتها تقف في الشرفة وقد اتجهت بوجهها نحو السماء، كأنها في لحظة تأمل.. صامتة خاشعة، كأنما قد صعدت نفسها إلى أسمى طبقات الايمان والصفاء والزهد.

وشعر كمال بأنه لا يستطيع أن يحول بصره عنها وهى بهذا الوضع، أما الفتاة نفسها، فقد كانت لاهية عنه بالتطلع إلى السماء. وخيل له وهو يرقبها بإمعان، أنها تعانى من حزن عميق. فبعد برهة أخفت وجهها بين يديها، ولمح جسمها كله يهتز. فلما رفعت يديها عن وجهها، وجد عينيها تفيضان بالدمع. ونظرت نحوه واضطربت بكامل هيئاتها، وكاد توازنها يختل.. وتلفتت حولها فى حيرة، وبدت على شفتيها بسمة خفيفة، وكأنما خجلت من نفسها فخبأت وجهها ثانية!!

هذه الحركة جعلت كمال يشعر بأنه يهوى جارته بقلبه.. بروحه.. بوجدانه. ولكن، كيف السبيل إلى الوصول إلى قلبها؟. وبينما كان يفكر فى ذلك رأى الفتاة تنظر نحوه وتبتسم. كأن.. كأن بصرها لم يقع عليه إلا فى هذه اللحظة! وأحس بقلبه ينبض بشدة من فرط الانفعال، وقال بصوت ينم عن وافر الخجل «مساء الخير».

أوشكت الفتاة أن تفقد توازنها وهى تسمع صوته وراحت تحدق فيه، ولكن نظراتها لم تكن تعبر عن شىء، وإن بدت مضطربة. ووقف يحدق إليها بدوره كأنما أسرته عيناها، ومضت فترة قبل أن تشيح عنه، وتقول فى تزمت.. «مساء الخير!!».

واستدارت إلى الداخل ونادت بصوت خافت مفعم بالألم قائلة «أمي . أمي؟».. أين أنت. ولما لم يجبها أحد، استولى عليها الاضطراب، ورفعت صوتها وكررت النداء «أمي. أمي.. أين أنت يا أمي؟!»:

ولم يفهم كمال معنى لذلك كله. فعاد إلى الوراء خافض الرأس، وراح يسائل نفسه عن معنى هذا النداء، ومعنى تلك النظرات التي كانت تحفل بالأمل حينا.. والخوف والرعب أحيانا!!

ومضت برهة سمع بعدها كمال صيحة مختنقة صادرة من الشرفة، وأعقب هذه الصيحة صوت التحام أجسام، مما ينبىء بوقوع صراع بين شخصين، فهتف لنفسه: مامعنى هذا؟. وعاد إلى النافذة ولكنه لم يجد أحدا، فاستدار إلى فراشه وأطلق لأفكاره العنان!

وقبل غروب الشمس أطل كمال من نافذته وكادت تنفلت من حلقه صيحة سرور عندما وجد أن جارته تقف فى نفس المكان، وهى تنظر إلى نافذته.. ولكن سرعان ما تلاحقت أنفاسه، وهو يرى ذلك الوجه الذى يجمع كل براءة الطفولة يبكي. وهتف لنفسه فى التياع: ما معنى هذا؟ فتاة صغيرة..مليحة رشيقة تبكى

وتهتز كورقة في مهب الريح.. شيء لا يكاد يصدقه العقل!!

ومع هذا التناقض أحس كمال بحب جارته يغزو قلبه، ولكن كيف السبيل إلي الوصول إلى قلبها؟ بل كيف يستطيع أن يعقد بينها وبينه أسباب الصلة وهى التى اضطربت من مجرد سماعها لصوته؟هل يذكر لها أن الجو لطيف، وأن السماء صافية الزرقة؟ ولكن.. هل يستطيع هو أن يفعل هذا؟! هل يجرؤ على هذا وهو الذى لم يختلط أو يتحدث إلى فتاة غريبة قط؟!

إنه قد يستطيع أن يلفت نظرها إليه حقا، بالغزل: أو بوسيلة أخرى، ولكن هل يجوز لمن كان فى مثل سنه وثقافته، أن يقوم بمثل هذه الحركات التى يعتبرها هو نفسه دون مستوى الخلق القويم؟! لا. لا.إنه لا يستطيع أن يهبط إلى مثل هذه الحركات التى لا يفعلها إلا صغار النفوس.. والأوفق من هذا كله، أن يتلمس الطريق من أبوابه الطبيعية.. فيذهب إلى أسرتها ويطلب يدها فإن تم الرضا كان بها ونعمت، وإن رفضت فإنها لن تكون قد أساءت إليه أكثر من قريبته!

وفى المساءتوجه كمال إلي أسرة نجوى، وهناك تلقاه الأب والأم والابن الأكبر للأسرة فى ترحاب لم يكن ينتظره. وفى حجرة الجلوس؟ رفع كمال رأسه وهم بالحديث، ولكنه أطرق

وأحس بنفسه يغوص فى الأريكة، وكانت المسألة بالنسبة له فى منتهى الدقة، وكان يتوقع من الأسرة أن ترفض طلبه، أو علي الأقل تقابل رغبته بفتور.. وربما ألقى القدر عليه درسا قاسيا فى صورة لطمة من الفتاة نفسها، بأن تشير إلى قبحه، فمن ذا الذى يستطيع أن يمنعها من ذلك؟ أو لم تجهر ابنة خالته بمثل هذا الرأى؟!

واستيقظ من أفكاره على ترحيب الأسرة، واستعاد محياه سكينته، وحدق فى الأب وقال بصوت أجش مضطرب:

- لقد جئت فى طلب يد كريمتكم نجوى..!!

قال ذلك وانكمش على نفسه كالفأر المذعور، بينما حدجه الأب بنظرة ثاقبة ثابتة وقال بصوت هادىء متزن:

- أتمنى أن أرى ابنتى عروسا تزف فى هذه اللحظة!!

ولاحظ كمال أن الأم عندما سمعت قوله أطرقت فى اكتئاب واضح، ثم أخذت تضحك، إلا أن ضحكها لم يكن طبيعيا، فقال على الفور وهو يحدق فيها:

- إن نجوى فتاة طيبة ومهذبة.. و..

وقال الابن وهو يتفرس فيه بامعان:

ـ هل عرفت نجوى قبل أن تبادر بمثل هذا الطلب؟!

فرمقه وأجاب فى حماس بالغ:

ـ أجل، رأيتها، وعرفتها، ورضيت بها كزوجة لى..!!

وراح الأب والأم والابن يتبادلون النظر فى صمت وأحس كمال بالكثير من الحرج وغطس فى الاريكة وأخرج المنديل من جيب سترته، وجفف العرق بعصبية، بينما قال الابن فجأةكمن يستيقظ من نوم عميق:

ـ أريد أن أعرف متى رأيت نجوى.. وكيف؟!

كان يتكلم بعزيمة وحزم يدلان على أنه يترقب منه تفسيرا كاملا فى الحال، فقال كمال بثبات.

ـ رأيتها فى الشرفة، وعرفتها من الشرفة، كأى انسان يرى جارة له يعجب بأخلاقها، ومن الطبيعى أن تكون الخطوة التالية ما ترونه الآن .. أنا مهندس و.. و..

وارتج عليه الكلام فلاذ بالصمت، بينما قال الأب وهو يتخلل لحيته البيضاء بأصابعه الطويلة النحيلة.

ـ أيها الشاب، ليس فينا من يستطيع أن يغشك، وعلى هذا الاعتبار ينبغى أن أؤكد انك غير موفق فى فى هذا الاختيار. إن

ضميرى.. إن.. ابنتى.. أوه. لا أدرى ماذا أقول..!!

وأطرق الأب فى صمت، وسمع كمال زفرة أليمة أدرك أنها صدرت من الأم، كأنها ترزح تحت ثقل أو هم خفى. ثم رفعت إليه عينين تفيضان بالدمع، وقالت فى أسى.

- آه يا جارنا العزيز! ما كنت أجرؤ على أن أتصور وجودك هنا من أجل هذا الطلب!!

وفى الحق إن كمال لم يفهم شيئًا من هذا الحديث، وتوهم أن الأمر ينصب كله حول التهرب من قبحه، فشعر كأن شيئًا كالنار يندلع من حلقه ويلسع وجهه، ومع ذلك فقد رمقها وأجاب فى هدوء:

- لقد سمعتم طلبى ولا أجد ثمة ما يدعو للتكرار، أو ما يدعو لإطالة الجدل فيما يشبه الألغاز!!

ومال الأب نحوه وقال فى صراحة وطيبة.

- اسمع أيها الشاب. لو رأيت ابنتى فستعدل حتما عن طلبك، وما دام قصدك شريفا، وحضرت إلى هنا وأوضحت طلبك بلا مداراة فان الخطوة التالية يجب أن نبدأها نحن، وهى أن ترى الفتاة بعين رأسك. وتتأملها جيدا قبل ان ترتبط بها ارتباطا كاملا.. حتى إذا أردت الانسحاب جاز لك أن تفعل ذلك بلا أدنى

حرج، ولكن.. لى شرط واحد، وهو أن ابنتى ستحضر مجلسك لتراها عن قرب فإذا رغبت فيها فهذا شأنك وحدك، أما إذا لم ترغب فيها كزوجة لك.. فإن الشيء الوحيد الذى أرجوه منك.. هو أن تنسحب فى هدوء..!!

ولكن كمال خيب ظن الشيخ وقال فى رنة فرح:

- سيدى لا أجد ما يدعو لإحضار نجوى، فقد رأيتها وشاهدتها أكثر من مرة كما سبق لى أن قلت، ولم أحضر إلى هنا إلا بعد الاقتناع التام بأنها الفتاة الوحيدة التى تصلح كزوجة لى!!

وتفرس الشيخ لحظة فى وجه الشاب ثم قال بصوت هادىء مكتئب:

- لست من رأيك. إن رؤية العروس تقليد متبع من زمان. ونحن من جانبنا قررنا القبول لا لشىء إلا اعجابا باستقامتك وسماعنا صوت صلاتك.. والكلمة الآن لنجوى!!

وجاءت نجوى مستندة على أمها، ووقفت لحظة تحدق نحوه فى صمت، وقد عقدت ذراعيها حول صدرها. وبعد أن هز كمال رأسه علامة الرضا، وسمعت نجوى الغرض الذى حضرت من أجله، قالت بصوت أجش مختنق:

ـ ولكن.. يا سيدى..إننى .. إننى .. يا للعذاب .. إننى ..كما ترى ..!!

وما أن فرغت من هذه الكلمات، حتى ألقت بنفسها على صدر أمها كطفل، وراح جسمها كله يهتز، وأجلستها الأم والدموع تهطل من عينيها بغزارة، وطأطأت نجوى رأسها وانحدرت من عينيها دمعتان جريتا فى صمت على طول خديها، وفى هذه اللحظة فقط.. اكتشف كمال أن جارته عرجاء و.. ونصف عمياء!! وأمام هذا المنظر الحزين، اندفع إليها وتمتم فى تأثر.

ـ نجوى. أنا لم أحضر إلى هنا على سبيل اللهو والتسلية، وإنما لكى أؤكد انك الزوجة الوحيدة التى اخترتها بنفسى!!

وما كادت تسمع ذلك حتى تقلص محياها الوسيم ولكنها بعد برهة أطرقت بشكل ينم عن الرضا!! وعندما كان كمال فى طريقه إلى الخارج، وضغط الأب كتفه برفق، وتمتم وهو يحدق فيه.

ـ ابتسم لها دائما يا ولدى، ابتسم لها.. ولنفسك، فالابتسام يزيل آلام القلوب!

## بداية المعركة

دخل الضابط والجندى فناء مدرسة المدينة قبل منتصف الليل، والتفت الضابط إلى الجندى ثم قال

- تعال هنا بعيدا عن منطقة الضوء، حتى لا نجلب المتاعب لحارس المدينة.

وأخرج الضابط ورقة من جيب سترته، وعاد نحو منطقة الضوء بحذر وركز بصره على الكتابة وقد زم حاجبيه وهز رأسه، وعاد إلى الجندى مسرعا، وقال فى هدوء.

- ستصبح قرية بأكملها معرضة للدمار. وهذا أمر فظيع، لا يحتمل، لابد من اتخاذ قرار فى الحال!

وتوقف الضابط، وحدق فيه، فقد كان عليه طبقا للأوامر التى صدرت إليه أن يبعث بهذا الجندى إلى قرية بعيدة، ولكنه جريح، فهل يستطيع أداء هذه المهمة،؟! وتفرس فى وجه الجندى، كأنه

يزن قوة احتماله، وأخيرا قال فى يأس:

ـ يجب أن تصل إلى قرية «سيدى بوصوف» قبل ظهر باكر. إن الأمر خطير للغاية. إن المستعمرين سيقومون بحملة غادرة عليها، ويجب أن يتنبه لذلك أهل القرية، ليكونوا على تمام الأهبة.

قال الضابط ذلك، وعيناه تومضان كاللهب، ثم رمق الجندى وأردف:

ـ إن الدماء تغرق كم سترتك أيها الجندى، ومعنى ذلك...

فأبرقت عينا الجندى، وقال:

ـ وأعلم أن الرصاصة لاتزال مستقرة فيه من أثر الموقعة التى انتهينا منها على التو، ولكن حق الوطن أجدر من حقى فى الحياة.. لاتنسى أننى جندى فى معركة.

وحاول الضابط أن يستبقى الجندى ويستبدله بآخر، ولكن الجندى لم يترك له مهلة للتفكير إذ تراجع خطوتين، ثم وقف أكثر انتصابا من ذى قبل وذراعاه إلى جانبيه، وأدى التحية العسكرية.

وتنهد الضابط، وتقدم نحو الجندى ولمس كتفه بأنامله، وقال وهو يحدق فيه باشفاق:

ـ اذهب والله معك.. وإن تيسر لى العثور على جندى آخر قبل الفجر فسأبعث به فى أثرك.

...

وعبرالجندى آخر شارع من شوارع مدينة وهران بعد منتصف الليل، ومشى على ساحل البحر الأبيض وهو يئن.. وماسورة البندقية المعلقة فى كتفه الأيسر تتلاطم فوق ظهره مع كل خطوة، وخيال المعركة المنتهية مع قوى الاستعمار التى خاضها مع رفاقه فى قلب مدينة وهران تلوح لعينيه فى عرض الطريق، ورائحة البارود لا تزال عالقة بأنفه كأنه لم يزل فى قلب المعركة.. أيفلح في الوصول إلى القرية والرصاصة لاتزال مستقرة فى ذراعه؟ وإذا هاجمه ذئب متوحش فهل يستطيع أن يصوب إليه فوهة البندقية؟

ويدأ الفجر ينبلج، وأنواره تتسع وتمتد، وتكشف عن سلسلة من الوديان بعضها مغطى بالروابى وأشجار الزيتون والبعض الآخر تكسوها أمراج قاتمة.

وبعد ساعة من سير يشبه الركض أحس الجندى فجأة بذراعه يؤلمه.. وبالتعب يتسلل إلى قدميه، فتوقف لحظة يلتمس التشدد، ولكن سرعان ما عاد إلى السير وهو يتمتم لنفسه

بصوت أجش:

- كلا لن أتوقف.. لن أستسلم للضعف. لن أمكن المستعمرين من مباغتة أهل القرية.

كان يضغط على الحروف كأنه يلوكها فى فمه، وهو يمشى ويمشى، والرياح تزأر من حوله، مختلطة بعواء الذئاب الضالة في الحقول والأمراج، وقطع الثلج تتساقط على السهول الممتدة أمامه وتغطى الأرض، وشعر بالظمأ، فتوقف عن المشى، وهز «الزمزمية» فوجدها فارغة، وتلفت حوله في يأس، ليس أمامه سوى الوديان، والبحر الملح الأجاج!

وأخيرا وصل إلى صخرة عملاقة تمتد جذورها حتى أعماق البحر نمت عند حوافيها بعض الأعشاب، فرمقها وتنهد وجلس على نتوء بارز منها ليسترد أنفاسه اللاهثة، وتلفت حوله بتوجس ولكنه لم يلمح انسانا، فافتر ثغره عن بسمة راضية، وامتدت يده اليسرى إلى حقيبة من القماش الأصفر مدلاة الى جانبه الأيمن، واخرج منها منظاره المكبر وراح يرمق جوانب الطريق الذى قطعه في ساعات فرأى السفن عن بعد كدمى صغيرة فوق صفحة البحر الهائج، والقوارب قرب الشاطىء ترتفع وتنخفض، وتتمايل وتهتز، كأنها قطع صغيرة من لعب الأطفال.

ووضع المنظار في الحقيبة وهو يتنهد ارتياحا وأخرج مرآة مكسورة مسحها بكم قميصه الممزق وراح يحدق في وجهه على ضوء النهار الجديد، كان مشعث الشعر، نامي اللحية، ممتقع اللون، ممزق السترة، ولكن لابأس مطلقا.. فإن هيئة الجندى المحارب يجب أن تكون هكذا.

ورمق البحر، وهز رأسه، وتمتم: لا بأس.. لا بأس مادام قد كبد الأعداء خسائر فادحة، ومادام قد أدى واجبه بما يرضى نزعة الحرية فى نفسه التواقة إلى الحرية.

ودس المرآة في الحقيبة، ودارت أنامله في جوانبها، وخرجت تقبض على كسرة جافة، رمقها وتمتم فى اغتباط «لابأس بها مطلقا، إنها قطعة من العيش ـ الفينو ـ فيها رائحة من مربى الأمس، وهذا وحده كاف لأن يجعلها مستساغة الطعم، بل ولذيذة». وقضم منها قضمة راح يمضغها بتلذذ، ومن وقت لآخر يتلفت حوله بتوجس حتى لا يؤخذ على غرة وهو جريح وضعيف لايستطيع أن يقاوم طفلا! وقرية سيدى بوصوف لاتزال على مرمى البصر!

وتلفت حوله كأنه يبحث عن مكان يمكن أن يجد فيه جرعة ماء تطفيء ما يحسه من ظمأ، ولكنه لم يجد غير الأمراج، والقرية

التى يقصدها تبدو أمامه كقطعة سوداء عن بعد، وماء البحر لايصلح للشرب، لقد ترك مدينة وهران فى غلس الظلام؛ ونسى أن يملأ «الزمزمية» بالماء، ورمق البحر وتمتم:

- يا لها من قسوة! إن الماء هنا لا يروى الغلة، والمستعمر هناك يسفك دماء البشر بدون مبرر!

وظهرت فى الأفق سحابة كبيرة قاتمة راحت تتحرك ببطء نحو الغرب، وظلت تكبر وتمتد مع بزوغ الشمس حتى أصبحت كطائر ضخم يسد الأفق بأجنحة منشورة حمراء، وشعر بشىء يخزه فى عضلة ساعده، فأغمض عينيه، وتمتم:

- رباه.. كم أتمنى لو أصبحت مثل هذه السحابة، أجوب الدنيا لأقضى على الشر.

وكأنما تيقظ على حقيقة شأنه.. فضحك ضحكة عالية، وتمتم:

- أوهام.. أوهام! لابد أننى أصبت بالحمى.

واستطاع الجندى أن يسترد قواه وحاول النهوض، لكن آلام ذراعه! اشتدت عليه فجأة، فتعقد جبينه، وقوس ذراعه أمام صدره بجهد، وراح يحدق فيه من خلال كم سترته الممزق، لقد توقف النزيف، لاشك فى هذا.. فالدماء جافة، ولكن الرصاصة لا تزال مستقرة فيه، بعد أن تركت فى عضلة ساعده فجوة بشعة

حمراء كفم الوحش.

واختفت السحابة أمام حرارة الشمس، واختفت معها أيضا بسمة الجندى من فوق شفتيه، فإن الرصاصة لاتزال باقية، والحمى بدأت تدب فى جسده، يجب أن يستخرجها قبل ساعة على الأكثر وإلا ساءت العاقبة، واضطر لبتر الذراع بأكمله.

وانتفض لهذا الخاطر كما ينتفض العصفور فى ليلة شاتية، ونهض وواصل سيره مدى برهة، ثم استدار نحو السهول الممتدة أمامه، وراح يدقق البصر فى الأعشاب النامية والأحراش المتكاثفة، واستقر بصره على شجرة لبخ، تنهض عند أول حقل للشعير، فلاحت على وجهه علامات الرضى، إن الشجرة قريبة من القرية، وهناك يستطيع أن يعنى بجرحه.

وسار يخترق الأمراج رافعا رأسه إلي السماء، والأوراق تلطم وجهه، والأعواد الجافة تتقصف تحت قدميه، وفجأة وجد نفسه أمام نهير ضيق سريع الجريان، فركع فوق ضفته وغسل وجهه، وشرب وشعر بالقوة تدب فى جسده، ومشى فوق حافة النهير قاصدا شجرة اللبخ، وارتفعت على كثب منه سعلة جافة، فارتجف.. وجمدت ملامح وجهه فجأة وتقبضت أصابع يده على قبضة البندقية وصوبها نحو مصدر السعلة، ومشى بحذر ليرى

ماهنالك، وقد تبخرت من رأسه الآلام والجوع.. وأصبحت كلها تافهة القيمة أمام الأخطار التى تحدق به وبأهل القرية.

- أهو جاسوس؟

تمتم بذلك لنفسه، وراح يتفرس فى الأمراج، ويدقق البصر فى رءوس الأعشاب العالية، ولكنها كانت تغطى الأرض على مد البصر، متكاثفة، ومن بينها كانت تظهر رءوس الصخور كأنها قمم جبال غاصت فى الأرض من قديم الزمن: إن جيشا بأكمله يستطيع أن يختبىء هنا.

هتف بذلك لنفسه، واقترب من المكان الذى يمكن أن تكون قد صدرت منه السعلة، وراح يتفرس فى كل شبر حوله، وفى الأعشاب التى كانت تهتز تحت هبات الريح، ولكن لم يكن هناك سوى الصمت، فازدرد ريقه وتمتم:

- ليس هنا كائن حى.. ربما خدعتنى أذناى، أجل.. لابد أن سمعى قد أصبح ثقيلا من الجرح.

لم يجد أحدا، أو يسمع صوتا، فواصل سيره إلى شجرة النبق، وهناك جلس، وأخرج مدية وقطعة من القطن والشاش الطبى وزجاجة صغيرة تحتوى على كمية ضئيلة من صبغة اليود.. وأشعل نارا فى كومة من القش، وغرس طرف المدية بين

اللهب، ثم شق كم القميص بأسنانه حتى الكتف، وظهر جلد ساعده، وتناول المدية الحامية، وتحسس مكان الرصاصة بطرفها، وأغمض عينيه وهو يغرس طرف المدية المدبب فى لحم ساعده، وخرجت من حلقه أنة مكتومة وسقطت الرصاصة فوق التراب، وتدفق الدم ساخنا حول الجلد، فأزاله بقطعة من القطن المعقم، وطهر الجرح وضمده، وعندئذ فقط شعر بصفير فى أذنيه، وبدوار شديد، واصفرت المرئيات أمام بصره، وراح يتأوه كمن يعانى من آلام لايطيقها كائن حي!.

وصوب بصره نحو القرية، لقد أصبح على بعد كيلو متر واحد فقط منها.. واطمأن إلى أنه يستطيع أن يصل قبل الموعد بساعتين على الأقل، ولكن لماذا لا يبكر فى الذهاب؟ وهم بالنهوض.. ولكنه لم يستطع أن يتحرك من مكانه، فاستند إلى جذع الشجرة بظهره وأغمض عينيه ريثما يسترد قواه.

وسمع حركة فتلفت حوله فى جزع ورهبة، ولكن سرعان ما احتلت شفتيه بسمة كلها عطف وحنان، فقد رأى غلاما يقف بالقرب منه يتأمله فى إعجاب، وقد راح شعره الناعم الأسود يتطاير مع النسمات التى كانت تهب من ناحية البحر باردة رطبة.

واقترب منه الغلام والبسمة المشعة لاتزال عالقة على شفتيه، وركع أمامه وقال فى شبه ابتهال:

ـ هل أنت جريح ياسيدى؟

فأجابه الجندى وهو باسم الثغر:

ـ أجل، ولكنه جرح بسيط ياولدى.

قال ذلك وندت عنه أنة مكتومة أفصحت عن مدى آلامه، بينما أحس الغلام بقلبه ينتفض من داخل صدره، وقال وقد شع من عينيه بريق الإشفاق:

ـ يخيل إلى أنك منهوك القوى، فى حاجة إلى الراحة التامة، أليس كذلك؟

ومشت أنامل الجندى فوق شعر الغلام، وقال وهو يحاول أن يكتم آلامه دون جدوى:

ـ كلا ياولدى العزيز، يجب على الجندى أن يتحمل كل شىء، كل شىء حتى ولو كانت آلامه فظيعة لاتطاق!

فقال الغلام وكل عضلة فى وجهه الناحل ترتجف:

ـ لقد رأيتك عند صخرة الشياطين السبعة، وخفت أن تكون من الأعداء فتقتلنى، لعنة الله على الاستعمار فى أى مكان تحت

السماء.. فأينما ذهب ينساب الموت مع خطواته!

وترقرقت دمعة في مآقي الجندي، وقال وأنامله تداعب خد الغلام في حنو:

- إن من يقتل غلاما بريئا مثلك لايعد من بني البشر!

وتراقصت الحيرة على وجه الغلام، ولم أطراف معطفه الرث، وجلس القرفصاء وقال بارتباك:

- ولكن جنود الاستعمار تقتل الاولاد وتطارد الشيوخ، وتبقر بطون النساء.

فأجاب الجندي وهو مطرق واجم:

- انهم وحوش ياولدي، يفعلون ذلك تحت قوة دنيئة اسمها.. اسمها.. أعتقد أن «اللصوصية» أنسب اسم يطلق على هذه القوة!

وتلفت الغلام حواليه في خوف، ثم ركز بصره على وجه الجندي وقال:

- أجل أيها الجندي، فإن هذه القوة تجعلهم أكثر ضراوة من وحوش الغاب، فلتنزل اللعنة بهم! لقد بقروا بطن أمي وهي تحلب عنزتها أمام الدار، ومزقوا وجهها وربطوها من عنقها في ذيل

حصان أحد شياطينهم وجرى بها شوطا بعيدا ولم يتركها إلا وهى كتلة من اللحم المشوه.

فصاح الجندى ووجهه يتقبض بعصبية:

ـ وحوش.. وحوش.. ليست لهم قلوب تهتز بالرحمة.

وعاد الغلام يقول بتهدج:

وكلما تخيلت منظرها عاودنى البكاء.. ويلهم.. إن صورة عذابها تملأ السموات والأرض، وأعتقد أن اللعنة ستحل بهم إلى يوم القيامة، وسيهيمون على وجوههم فى فجاج الأرض، وفى الآخرة سيخلدون فى النار.

فقال الجندى محاولا أن يغير الحديث حتى لايبكى الغلام:

ـ وأين أبوك الآن؟

ونهنه الغلام فترة تمالك بعدها أعصابه وقال:

ـ قتلوه! قتلوه وهو في الحقل.. وأخذوا بقرتنا الوحيدة واقتلعوا أشجار الزيتون التى كنا نقتات من ثمارها، كل شىء قبيح فعلوه بلا وازع من ضمير.

وغامت الدنيا أمام وجه الجندى.. وتمتم بصوت باك:

ـ وأنا أيضا ياولدى.. فقدت ولدا طيبا، قتلوه أمام عينى لأننى

رفضت الاعتراف لهم بمكان الجنود، ولو قتلوني من أجل ذلك لما اعترفت.

ورمق الغلام الجندي في دهشة، وقال:

ـ مسكين أيها الجندي.كيف يقوى قلبك على احتمال هذا المنظر؟!

فهز الجندي رأسه وتمتم:

ـ كما احتمل قلبك الرقيق منظر موت أمك!

ورمق الجندي معطف الغلام الباهت الرث، وثبت بصره على أزراره التي بدأت تتشقق وتجرب، واستطرد يقول بتهدج:

ـ وكذلك قتلوا زوجتي، لم يرحموا أحلامها السعيدة وهي تتخيل مولودها المنتظر، لقد ذهبت الزوجة ومعها الطفل قبل أن تكتحل عيناه بنور الحياة، شيء فظيع للغاية أن تموت زوجة وهي في قمة أحلامها.

ومسح الغلام دمعة تدلت فوق خده المصفر، وتمتم:

ـ إنهم كلاب، بل إنهم أخسأ من ذلك وأدنى وألعن، لقد قتلوا كلبي الصغير عنتر.. أردوه رميا بالرصاص لأنه كشر عن أنيابه عندما رآهم يقتلون أمي الحبيبة، فياللعار، ياالعار جيل القرن

العشرين إن لم يطهر العالم من وباء الاستعمار أمام أجيال القرون الآتية!

وحدق الجندى فى الغلام وقال فى دهشة مقرونة بالاعجاب:

- أجل ياولدى.. ياللعار.. ولكن ما أحلى وما أعذب أن يلعن الاستعمار من غلام مثلك!

ومرة أخرى راح الجندى يرمق معطف الغلام فى أسى، بينما لاحت على وجه الغلام بسمة مريرة وتدلى بصره إلى معطفه ثم حدق فى الجندى وقال مزهوا:

- إنه معطف قديم ولكنه جيد، لقد حصلت عليه من سيدة كريمة محسنة عندما وجدتنى أرتجف من برد الشتاء.

ونظر الجندى إلى الفضاء، والحقول المترامية الأطراف، ثم حدق فى وجه الغلام وتنهد وتمتم:

- إن نفوسنا تتحرق شوقا إلى الحرية حتى نستطيع أن نزرع حقولنا ونجنى ثمار أشجار الزيتون فى أمان.

- كلنا أيها الجندى نتطلع إلى الحرية ولكى نحقق الحرية لابد من مواجهة المعارك والموت حتى...

وصمت الغلام فجأة، وقد اتجه ببصره نحو البحر، فقال

الجندى بصوت حالم:

- استمر ياولدى.. فإن حديثك الشائق...

فصاح الغلام مقاطعا:

- صه أيها الجندى، انظر هناك ناحية البحر، إنه أحد جنود المستعمرين إنه جاسوس، يظهر وبعده الدمار.. القتل.. لانريد لأحد من أهل القرية أن يقتل، لأن من السهل أن تقتل.. ولكن ليس من السهل أن تبعث من يقتل إلى الحياة، والقرية فى حاجة إلى جهد كل فرد، لانريد اليتم لطفل، فقد ذقت مرارة ذلك، دبرنى أيها الجندى.. ماذا نفعل؟

وانتصب الجندى وحدق ببصره ناحية البحر، وتمتم:

- ياللأسف! لا أستطيع أن أواجه هذا الشيطان، إن ذراعى يؤلمنى. بل لا أستطيع أن أحركه، أو أوجه فوهة البندقية نحو هذا الوحش، هيا بنا نختبىء بين الأمراج وننظر ماذا يتم.

وتصلبت ملامح الغلام فجأة، وقال بثبات:

- دعنى أرفه عن نفسى بالانتقام من هذا الوحش، لأبى، وأمى، وكلبى عنتر!

وتصفح الجندى وجه الغلام، وقال باشفاق:

ـ هل يستطيع فأر مثلك أن يؤدى مثل هذا العمل؟

فقال الغلام بأنفة وشموخ:

ـ فلنجرب! ربما استطاع الفأر أن يأتى بنتائج باهرة فى مثل هذا الموقف الحرج!

وعندئذ قال الجندى باسما:

ـ أحقا تستطيع هذه اليد الأمينة الصادقة أن تحكم الهدف؟

وخطف الغلام البندقية من الجندى على حين فجأة وقال بثبات وهو رافع الرأس:

ـ إننى لن أكون ولدا طيبا إذا عدمت المهارة فى قتل هذا الآثم فى الحال.. إنى أسمع صوت أمى.. صوت أبى.. صوت الشهداء.. تنادى على من وراء عالمهم المجهول، قف مكانك أنت.. إن هذا القذر يتجسس، ليس فى ذلك شك.. ويجب القضاء عليه فى الحال.

وقبل أن يفيق الجندى كان الغلام قد غاب بين الأمراج كالهر، فانطلق نحوه مادا ذراعيه، ولكنه لم يعثر له على أثر، واندفع الجندى بين النباتات وهو يئن، وبعد أن قطع مسافة طويلة فى اتجاه الغلام، توقف وهو يلهث، ورفع رأسه بجهد، ليرقب تطور المعركة عن كثب، ولكنه لم يلبث قليلا حتى اعتراه

الندم، لأنه سمح لغلام أن يواجه وحشا!

وكاد قلب الجندى يكف عن الخفق وهو يلمح ماسورة البندقية تمتد من بين النباتات، وهى تلمع فى نور الشمس كما تلمع رغبة الانتقام فى قلبه، وتحيله إلى أتون متوهج: آه لو أفلح في القضاء عليه، أنه سيحتويه بين ذراعيه ويقبله وقد أخذ بقوة وطنيته، ونسى أن يبلغ أهل القرية، وهذه هى بوادر غفلته.

ورفع رأسه أكثر، وشعر بقدميه تغوصان فى الأرض، وبقلبه يكاد يكف عن الخفق، فقد رأى الجندى يتجه نحو الغلام! يااللشرير.. لو انفرد بالغلام فسيقضى عليه حتما، وسيعمل «السونكى» فى بطنه حتى تتدلى أحشاؤه فى الأمراج.. أغيثيه يا رحمة الله.

هتف بذلك من أعماقه، وارتفع صوت طلق، وتلا آخر.. وآخر.. انقبضت ملامح الجندى، لابد أن الغلام قد أصيب يجب أن يراه فى الحال.. وراح يحبو بين النباتات النامية بحذر. وشعر بآلام لا تطاق فى ذراعه. وبوخز الأشواك النابتة بين الأعشاب وهى تنغرس فى راحتيه، حتى تمزقنا وسالت منهما الدماء، وبالرغم من كل ذلك، فقد واصل زحفه تحت طاقة جبارة من قوة الارادة ليرى ما حل بالغلام.

وبينما كان يواصل زحفه بإصرار! ارتد فجأة إلى الوراء مذعورا، وبقي في مكانه متجمدا بلا حراك كمن قد تيبست أعضاء جسده، وقد اتسعت حدقتا عيناه رعبا وفزعا، وانغرست أنامله في الأرض الضحلة وقد ثبت بصره على ثعبان هائل الحجم، وطوى نفسه مرتين واندس في الأمراج بلا صوت في سرعة الومض.

وتمتم الجندي بفزع:

- ياالله.. ما هذا؟

تمتم بذلك لنفسه في انبهار وصدره يعلو ويهبط كمريض يجود بأنفاسه الأخيرة، ووقف ومسح العرق المتصبب فوق جبهته، وكادت تنفلت من حلقه صيحة فرح عندما وقع بصره علي الغلام.. كان طريحا بين الأعشاب، وأناته الخافتة لاتكاد تسمع، والدم يتدفق بغزارة من ذراعه الأيمن.

وانحنى عليه وتمتم:

- أنت بخير ياولدي؟

وتحرك رأس الغلام، وثبت بصره على وجه الجندي، وانفرجت شفتاه عن بسمة مضيئة، وتمتم :

- أجل .. شكرا لك.. فقط ذراعي آه.. أحس كأنه تحطم

تماما، ولكن يسرنى أن أذكر لك أننى قضيت على الجندى.. إنه على بعد خطوات.. جثة هامدة.. وبندقيته ملقاة بجانبه فلا تنساها.

وامتدت أنامل الجندى إلى ذراع الغلام يتفحصه، فصرخ صرخة مروعة وأدرك الجندى أن ذراعه قد أصيبت برصاصة فى العظم.. وأنها.. يا للهول محطمة.

ورفع الجندى رأسه ، وتلفت يمنة ويسرة وهو متجهم الوجه، لابد من حمل الغلام والتوجه به إلى القرية فى الحال والاساءت العاقبة، ولكن.. أيستطيع أن يصل به إلى القرية دون أن يراه أحد؟

وأدار بصره نحو البحر ، وراح يرمق الجهات بمنظاره المكبر، وجحظت عيناه على أشباح جنود الاستعمار وهم فى الطريق إلى القرية، ليس هنالك أدنى شك فى أنهم سيغيرون على القرية فى خلال ساعة أو ساعتين على الأكثر.. وتمتم لنفسه بخوف:

- لابد من حمل الغلام فى الحال.

وبلا تفكير حمل الغلام فوق كاهله، لم يعبأ بصرخاته ولا أناته، بل انطلق به فى جنون اليائس من الخلاص من بين فكى

وحش مفترس يطارده.

وراحت أعواد النباتات اليابسة تتقصف تحت قدميه، وتحدث قرقعة مختلطة بأنات الغلام الباسل، الذى يبدو أنه قد أدرك أخيرا فداحة ما ينتظر أهل القرية من خطر، فراح يقول بصوت أجش:

- تشجع يا سيدى.. لقد ابتعدنا كثيرا، إنهم لن يلحقوا بنا على أية حال!

وفى شارع ضيق من قرية سيدى بوصوف تجمع الناس حول الجندى والغلام وهو يصيحون:

- ماذا جرى.. ماذا جرى؟

وعلت الأصوات، وتكاثر اللغط.. وبرز رجل فى مقدمة الصفوف، ورمق الغلام، وقال:

- ماذا بك أيها الغلام؟

وتوقف الجندى، وراح يقول بصوت متقطع لاهث وهو يرمق صفحات وجوههم:

- أنظروا إلى هذا الغلام؛ لقد أنقذ حياتى، تحققوا من ذراعه.. أنه سيصبح عاجزا مدى الحياة مالم تسعفوه .. إن

المستعمرين يقتربون من قريتكم.. وسيدمرونها بلا جدال، سيقتلون أولادكم ويبقرون بطون نسائكم ويأخذون مواشيكم ويحرقون حقولكم، ويقتلعون أشجار الزيتون من جذورها لقد جئت لأبلغكم رسالة الاستعداد لملاقاة المستعمرين ومقاتلتهم حتى الموت، أنتم لاتستحقون الحياة مالم تدافعوا عن حريتكم بقوة الساعد، لن تكونوا رجالا مالم تذودوا عن أنفسكم فى استبسال هلموا.. هلموا إلى البحر.. إن المستعمرين هناك، وعما قليل سيصلون إلى القرية مالم تواجهونهم فى الأحراش!

وأدار الغلام عينيه فى الوجوه، وقال بثبات:

- قل لهم يا سيدى إن الاستعمار وقح لا يمنح الحرية لشعب مستضعف!

- وصاح رجل كهل فى حماس:

- الحق ماقلت يا ولدى.. سأبعث بك إلى طبيب على نفقتى فى الحال.

وقال آخر:

- اشهدوا يا أهل قرية سيدى بوصوف. لقد حرمت من إنجاب الأطفال ولكنى سأتبنى هذا الغلام، سأكتب له ما أمتلك.. إنه قوى يستطيع أن يشرف على الحقول والأبقار، ويحرس

أشجار الزيتون، وينمي الثروة.

والتفت الغلام نحو المتحدث وأجاب:

– الأوفق من كل ذلك أن تعطي ما يفيض عن حاجتك من أملاك لفقراء هذه القرية، فليس من شك أن بينهم من هو أكثر مني احتياجا.

وصفق أهل القرية، وعاد الغلام يقول بصوت واهن:

– ولكنكم لم تتأهبوا بعد للقاء المستعمرين؟

وبعد لحظات، كان أهل القرية يحملون سلاحهم في الطريق إلى البحر، والنساء يحملن في أيديهن الاعلام الصغيرة والمناديل البيضاء الرقيقة وهن يهتفن بالذود عن الحرية ورمقهن الغلام وصاح:

– لن تستعبد بلدى.. وفيها مثل هؤلاء الرجال المدججين بمختلف الأسلحة ولا مثل أولئك النسوة اللاتى يقابلن الكفاح والبشر يعلو وجوههن.. أليس كذلك أيها الجندى؟

وغاب الغلام عن عينى الجندى فى طريقه إلى الطبيب، وعندئذ فقط تهاوى إلى الأرض ورمق أهل القرية الذين ابتعدوا عنها بنظرة تكاد تنطق :

بالأمس انتهت معركة .. واليوم بدأت أخرى؟

# صدر من هذه السلسلة

## اصدارات الهيئة العامة لقصور الثقافة

* ضمن اهتماماتها المتعددة بالنشاط الثقافى بمختلف أشكاله، تعنى الهيئة بإصدار عدة سلاسل من الكتب هى:

**أولا: سلسلة «أصوات أدبية»**

- مخصصة لإبداع أدباء مصر فى كل مكان فى الشعر، فى القصة فى الرواية.
- تصدر اسبوعيا.

**ثانيا: سلسلة «كتابات نقدية»**

- تواكب الإبداع الأدبى بالدراسة والتحليل، ولاتغفل النظريات النقدية والعربية والعالمية. وتفتح صدرها لكل فكر جاد يتسم بالطابع النقدى
- تصدر شهريا. في منتصف كل شهر.

**ثالثا: كتاب «الثقافة الجديدة»**

- يتناول حياة أبرز المفكرين وأعمالهم وأدوارهم فى إضاءة العقل والوجدان ودراسة تحليلية لإنجازاتهم في خدمة الفكر والإبداع العربى.

**رابعا: سلسلة «مكتبة الشباب»**

- تأخذ على عاتقها مهمة التثقيف العام بتقديم كتب مبسطة تتناول مختلف ألوان المعرفة.
- تصدر أول كل شهر

**خامسا: كتاب الأدباء**

-يهتم بتقديم الواقع الثقافى والإبداعى لكل إقليم على حدة ويُعد بمثابة بانوراما كاشفة لحركة الإبداع الأدبى فى أقاليم مصر.
- يصدر شهريا

| رقم الايداع ٩٤/٨٤٧١ |
| --- |
| I.S.B.N. |
| 977-235-227-3 |



# مخاوف صغيرة

* مجموعة من القصص للكاتب «محمد المندى» وهى – على مايبدو – المجموعة القصصية الأولى التى صدرت له. ومنها معالجات قصصية التزمت بالإطار التقليدى للقصة القصيرة؛ تعددت موضوعاتها؛ وتنوعت مصادر التجربة الابداعية فيها. والكاتب يحاول من خلال مجموعته. الوقوف على الأبعاد التى تشكل ملامح شخوصه القصصية؛ والعلاقات التى تربط بينها، وبين الواقع المعيش؛ بقضاياه المتلاحمة والشائكة.



الثمن: خمسون قرشا
شركة الأمل للطباعة والنشر والتوزيع